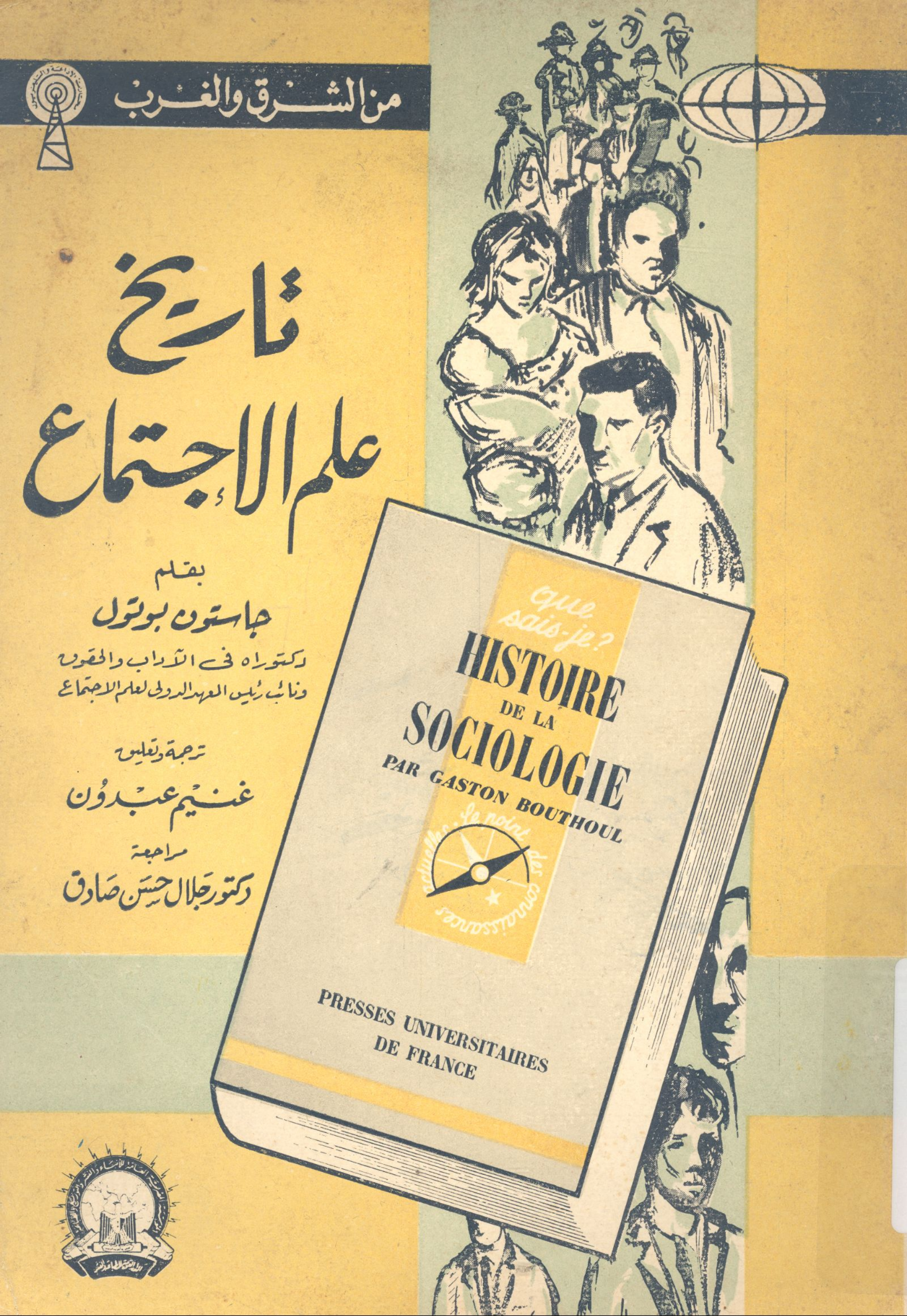


من الشرق والغرب
تاريخ
علم الاجتماع
بقلم
جاستون بوتول
دكتوراه فى الآداب والحقوق
ونائب رئيس المعهد الدولى لعلم الاجتماع
ترجمة وتعليق
غنيم عبدون
مراجعة
دكتور جلال حسن صادق
que sais-je?
HISTOIRE
DE LA
SOCIOLOGIE
PAR GASTON BOUTHOUL
le point des connaissances actuelles
PRESSES UNIVERSITAIRES
DE FRANCE

من الشرق والغرب

تاريخ علم الاجتماع

بقلم جاستون بوتول
دكتوراه في الآداب والحقوق
ونائب رئيس المعهد الدولي لعلم الاجتماع

ترجمة وتعليق غنيم عبدون
مراجعة دكتور جلال حسن صادق

الباب الأول

عناصر تكوين علم الاجتماع والمبشرون به

الفصل الأول

العصور القديمة والعصور الوسطى

إن التقدم الملحوظ الذى كملت صورته فى التفكير فى دراسة الظواهر الاجتماعية ، يظهر بوضوح فى مراحل أزمة من الأزمات عندما تتعدى الحوادث والاضطرابات « الأطر » الاجتماعية التى تعودها الناس والحلول التقليدية التى درجوا عليها .

وفى أية دولة نظمها ثابتة وهيكلها الاجتماعى موحد ثابت ، يظل تفكير الإنسان راكدا بدون أية إثارة . أما الحوادث غير المرتقبة فتفرض مجهودا من التأمل والتفكير والتكيف من جانب المثقفين .

وعلم الاجتماع هو العلم الوحيد الذى تابع منذ مولده دراسة الظواهر التى فى طريقها إلى التغيير المستمر ، وكل مرحلة من مراحل هذا العلم مرتبطة تمام الارتباط بظاهرة من ظواهر عدم الاستقرار الاجتماعى .

ولكن لا يكفى أن تنشب أزمة كيما تثير آلياً تطوراً ما أو تقدما ما . وشرط التفكير الاجتماعى وجود نخبة مثقفة أو « وسط ثقافى » يحاول أن يحلل وأن يتعمق العناصر المباشرة للتجربة ، وأكثر من ذلك عليه أن يصنفها بشىء من الحرية دون أن يكون خاضعاً لاتجاه واحد مفروض عليه .

وقد وجدت كل هذه الشروط مجتمعة للمرة الأولى فى بلاد الاغريق التى ازدهرت فيها كبريات المدارس الفلسفية مثل مدرسة السفسطائيين، ومدرسة أرسطو ، ومدرسة أفلاطون فى أثناء المرحلة المضطربة التى كان مركزها حرب البولوبينيز .

وفى ظل كل مجتمع مبادىء اجتماعية كامنة لاتتبلور إلا نادرا . ومثل هذه المبادىء لاتوجد إلا فى تنظيمات المجتمعات التى هى أكثر بدائية . وكل شىء يمضى فى مثل هذه المجتمعات يبدو وكأن القوانين والحقوق والتنظيم العائلى والاجتماعى ناتجة عن عدد معين من المبادىء والدوافع . ومن المهام الرئيسية لعلم دراسة الإنسان والتاريخ استخلاص هذه المبادىء وهذه الدوافع من جملة الحقائق التى تقوم على دراستها مثل هذه العلوم .

وقد نقل لنا المؤرخون من علماء الاغريق والرحل منهم بعض الصور عن الشرق القديم وتنظيماته الاجتماعية ، وتعكس هذه الصور ما كان للطقوس الدينيـة من مكانة عظيمة عند تلك الشعوب . ولقـد أشار هيرودوت Hérodote إلى أن ايديولوجية المصريين القدماء مثلا كانت نوعا من التأييد للتنظيم الاجتماعى الذى تصوروه بالنسبة للدين .

وكان التسلسل فى مراتب الآلهة متمشياً مع مثيله فى الناس ، وإنشاء المملكة عندهم عمل من أعمال الآلهة . وفرعون الذى كان بمثابة وسيط بين العالم السماوى والعالم الأرضى ، اعتبر نفسه إلهاً كذلك . والحياة الآخرة من وجهة نظرهم ماهى إلا امتداد للحياة الدنيا ، وهذا ما يفسر لنا الأهمية الكبرى لبناء المقابر وتحنيط الجثث ، وكل مايتصل بتنظيم مابعد الحياة الدنيا ورفاهيته . وقد أتاح هذا المفهوم المادى للبقاء لعلماء الآثار أن يتفهموا حياة قدماء المصريين وأفكارهم أكثر من تفهمهم لطبيعة المجتمعات التى اختفت بدورها بين غياهب الماضى .

وللمجتمعات الهندوكية التى هى أكثر قدماً .. فلسفة اجتماعية مرتبطة بالعقائد الدينية البراهمية ، وبرغم أن علم الديانة الهندوكية ملىء بكثير من

الأساطير والخرافات فإن به حقائق اجتماعية آمن بها الناس فى ذلك العصر على أنها عقائد دينية .

ونظام الطوائف هو الدعامة الأساسية للمجتمعات التى تعتنق الفلسفة البراهمية ، فالتبريرات والتفسيرات التى يضفيها الفلاسفة البراهميون على وجود الطبقيات والنتائج التى يستخلصونها تدل على أنه كان نظاما متماسكا فى المحيط الدينى ، وكذلك فى محيط التنظيم المادى والمهنى .

وفى أمريكا ، قبيل عصر كولومب ، كان هناك بعض المفاهيم الاجتماعية قبل ظهور المبادىء والمعتقدات التى هيمنت على تنظيم المجتمعات الأمريكية ، وكانت هذه المجتمعات ذات خصائص تختلف الواحدة عن الأخرى وخاصة المجتمعات ذات الطابع الإلهى ، ويقصد به المجتمع الإقطاعى والعسكرى .

وربما ينحصر فى هذه النقطة بالذات ، الطابع المميز للمجتمعات الشرقية ، فلم يقم التنظيم الاجتماعى فيها على مبادىء دينية فقط ، بل إنه يعتبر كذلك امتداداً مباشراً لعالم علوى .

وكان الإمبراطور فى الصين القديمة ، وخاصة فى عصر الإقطاع ، يعتبر « ابن السماء » ، كما أن الميكادو يعتبر فى اليابان « إلهاً » ، ومع ذلك فقد اهتم المفكرون الكلاسيكيون فى الصين ببعض المشكلات الاجتماعية ، ولكن هذه المشكلة ظلت مندرجة تحت مذهب نفعى ضيق وتحت مبادىء أخلاقية قاسية كل القسوة ، تدعو إلى عدم مبالاتها بآلام الأفراد وخاصة النساء منهم .

ولم يَلُحْ فجر علم الاجتماع إلا حينما تجردت التأملات الاجتماعية ؛

ولو جزئيا ، عند بزوغ أول خيط من الروابط الدينية . وكان الذى يربط المدن الاغريقية ويوحد ما بينها .. تلك المعتقدات الدينية برغم اختلاف المنظمات السياسية فيما بينها . وقد أتاح وجود المجتمعات المختلفة فى المدن الإغريقية ظهور الرواد الأوائل لعلم الاجتماع .

السفسطائيون Les Sophistes

والفلاسفة الأوائل من الإغريق الذين عالجوا بعض المشكلات الاجتماعية هم السفسطائيون . وقد تزودنا بأفكار هؤلاء من خلال كتابات أعدائهم ، فهؤلاء لا يذكرون مؤلف أفلاطون «بروتاجوارس» أو مؤلف ارستوفان إلا للنقد والسخرية . ومهما تكن الأفكار التى احتوتها هذه المؤلفات فانها تعتبر فتحاً جديداً فى الميدان الاجتماعى من ناحية ظهور الطريقة العلمية فى معالجة المشكلات الاجتماعية أو غير الاجتماعية . وكانت طريقتهم قائمة على الملاحظة والمقارنة والنقد .

ولا يثق السفسطائيون فى التفسيرات المألوفة ولا فى الأساطير والخرافات . وهم يندون بالأفكار والعادات القديمة التى كانت تسود المنظمات الأثينية ، برغم التطور الهائل فى التجارة والثقافة لهذه البلاد .

من أجل هذا بدأوا فى البحث عن قانون طبيعى قائم على احترام الشخصية الإنسانية . وقد عملوا ما فى وسعهم على تحرير الفرد الذى ينتمى إلى المجتمعات القديمة . وقد انصبت كل بحوثهم على مسائل أخلاقية ، فحاربوا الرق والقومية العنيفة التى اشتهرت بها المدن الإغريقية . وهذه أول مرة فى تاريخ الفكر الإنسانى ، يرى المرء فيها مناقشات حرة حول مسائل اجتماعية أدت إلى خلق العبقرية الإغريقية فى عالم ظلت فيه الفلسفة سقيمة على الفهم ومقصورة على المشتغلين بها .

وقد نبهت مناقشات السفسطائيين فيما بينهم أذهان المفكرين ووجهتهم نحو التفكير والتأمل فى الظواهر الاجتماعية .

أفلاطون Platon (٤٢٩ — ٣٤٧ ق . م)[١]

ولد أفلاطون فى أثينا وهو ابن « ارسطون » ، ولما بلغ العشرين من عمره تتلمذ على سقراط ولازمه نحو ثمانية أعوام ، فسمع مناقشاته ودوّن الكثير من آرائه . وبعد أن نفذ الحكم على سقراط ، هاجر إلى بلدة « ميجارا » القريبة من أثينا ، ثم زار آسيا الصغرى ومصر وإيطاليا وصقلية . وقد اهتم بدراسة المذاهب الفلسفية الشائعة فى زمنه ، وشملت دراسته مذاهب الفلسفة الشرقية كالهندية والفارسية .

استهل أفلاطون كتابه « الجمهورية » بفصل عن ماهية العدل ، واعتقد أن أحسن تعريف لحقيقة العدل يكون بتحليل المجتمع وبتحليل النفس البشرية ، ولكنه بدلا من أن يبدأ بالفرد وينتقل إلى المجتمع ، نجده يقوم بتحليل المجتمع البشرى أولا ، وحجته فى ذلك أننا نرى الفرد فى المجتمع على صورة أكبر وأوضح ؛ ففى المجتمع بطبقاته وتجارته وصناعته وأنظمته العسكرية والسياسية تظهر العناصر الخفية للطبيعة الإنسانية ، وتتخذ شكلا أكثر وضوحا عنها فى الفرد نفسه[٢] .

إن خلاصة أفكار أفلاطون نجدها فى مؤلفه الرئيسى « الجمهورية » الذى يعرض منهجاً حقيقياً للفلسفة الاجتماعية .

ومن أجل هذا فأفلاطون لايرسم تخطيطاً اجتماعياً للمدينة على ماهى

(١) من تعليقات المترجم

(٢) للمترجم

عليه ، بل على ما يجب أن تكون عليه . وهناك مشكلة أخرى شغلت بال أفلاطون ، ألا وهى كيف يمكن تجنب الاضطرابات والقلاقل التى لا تحتمل والتى تسبب تخريباً ودماراً مما يؤدى إلى شقاء بلده وبؤسه ؟ وهو يقول فى هذا المقام :

« يجب علينا أن ننظم بلادنا بطريقة مدروسة وثابتة »

وبهذا يمكن القول انه منذ عصر أفلاطون كانت تغلب على طابع الفلسفة الاجتماعية دراسة مظاهر الاضطرابات فى المجتمع ومحاولة البحث عن علاج لها .

ولكى نتجنب هذه الاضطرابات وتلك القلاقل ، يوصى هذا الفيلسوف بالرجوع إلى المنظمات القديمة لبلاد اليونان ، ومثله الأعلى فى ذلك التكوين الذى لا يتغير لمدينة « أسبرطة » من حيث صرامته وأرستقراطيته وعسكريته. وهو يضيف – كيما يكتمل مثله الأعلى – إلى ذلك التقليل من التبادل بين المدن الإغريقية وعدم الثقة فى المثقفين وفى الشعراء ذوى الحساسية الشاعرية وأصحاب التجديد المستمر ، ويدعو كذلك إلى إقامة نظام من الطوائف .

وأخيرا فلتلافى أىّ تصدع فى التوازن الاقتصادى والسياسى ، يلزم تحديد عدد السكان فى المدينة التى تتخذ نموذجا لهذا النظام ، ولكى نحافظ على عدم زيادة السكان بتلك المدينة النموذجية يشير إلى أن على القضاة أن ينظموا عدد الزيجات بحيث لا تتخلف عن فوضى الزواج زيادة فى عدد المواليد ، ويؤاخَذُ المواطنون الذين ينجبون أطفالا بعد تعديهم السن المقررة والذين لا يتبعون الشروط التى نظمها القانون .

يقول اسبيناس Espinas : « يعد أفلاطون أكثر فلاسفة السياسة مثالية وواقعية فى الوقت نفسه ، ويعتمد مفهومه الاجتماعى على مفهومه السيكولوجى ، وهذا المفهوم الاخير يبنى على تحليل الاتجاهات الإيجابية للروح الإنسانية .

ويقسم أفلاطون الروح ثلاثة أقسام : فهى تتكون من الرغبة (الرغبة فى الأشياء المادية) ومن القلب ومن العقل ، والمهارة تكون فى التحكم بين موازنة هذه الاتجاهات الثلاثة ، وتوازن بين الفضائل الثلاث التى تتصل بهذه الاتجاهات : الاعتدال والشجاعة والحكمة . ويلزم أن يتمثل هذا التوازن للروح الإنسانية فى المجتمع الذى يجب أن يتشكل من ثلاث طبقات على حسب صورة الروح : طبقة الصناع ، وطبقة المحاربين ، وطبقة القضاة والفلاسفة .

وعلى عكس المجتمع الإقطاعى .. حيث الطبقتان الحاكمتان ، أى طبقة النبلاء وطبقة رجال الدين هما فى الوقت نفسه كبار ملاك الأرض ، يريد أفلاطون أن يكون حق الملكية لطبقة الصناع فقط ، أما الطبقتان الأخريان فعليهما أن يحققا نوعاً من أنواع «الجماعية» Communitarisme التى تهدف إلى سيادة الأخوة وعدم حب الذات . ويجب أن يطبق هذا النظام بالنسبة لهاتين الطبقتين على الأسرة ، فيكون اندماج هذه الأسر معاً لوقت معين وتحت سلطة القضاة لمراقبة تنفيذ هذا النظام بكل دقة وعناية ، وسيتربى الأطفال معاً على أنهم إخوة متحابون على شريطة أن يتناسوا آباءهم الحقيقيين .

وقد رسم أفلاطون كذلك خطوط نظرية خاصة بالاضطرابات

الاجتماعية ، وفى رأيه أن هذه الاضطرابات الاجتماعية تنشأ من تعاقب الدورات السياسية المتتالية التى تنتج بدورها عن اختلاف المفاهيم السيكولوجية بين الأجيال المتعاقبة . وهو يرى أن التطور الاجتماعى قائم على التسلط المتعاقب لعدد من النماذج السيكولوجية الدائمة وهى : المنصفون ، والطامعون ، والمستبدون .

ويقيم أفلاطون ارتباطاً منطقياً بين سلوك الدولة وسلوك الأفراد فهو يقول :

« يختلف سلوك الحكومات ، كما تختلف قلوب الناس »

أرسطاطاليس Aristote (٣٨٤ — ٣٢٢ ق . م)

ولد أرسطاطاليس بمستعمرة يونانية يقال لها « ستاجيرا » على ساحل مقدونيا بالقرب من ترافيا ، وكان السلطان اليونانى فى ذلك الوقت موضع التنازع بين مدن ثلاث هى : إسبرطة وأثينا وطيبة ، وكانت كل مدينة من هذه المدن تحاول أن تسود البر والبحر ، وأن تكون صاحبة الكلمة فى بلاد اليونان . وقد نشأ هذا الطفل نشأة خاصة وأثر فيه ما كان يشهده من ضعف اليونان وفساد أمرهم ، وانتقل من مقدونيا إلى أثينا حين بلغ السابعة عشرة ليتم دراسته ، وكانت أثينا هى الجامعة التى تحج إليها وفود من طلاب العلم من أوربا وآسيا وإفريقية .

ونستطيع أن نعد العصر الأخير من حياة أرسطاطاليس عصر الإنتاج العلمى ؛ فلم يكد يستقر به المقام فى أثينا حتى بدأ دروسه العلمية والفلسفية والأدبية ، وتتلخص فلسفة أرسطاطاليس من الناحية العلمية فى أربعة آراء :

الأول : البحث عن الإنسان من حيث إنه جماعة سياسية ، وهو الفلسفة السياسية .

الثانى : البحث عن الإنسان من حيث إنه فرد من جماعة له حقوق وعليه واجبات ، وهذا هو علم الأخلاق .

الثالث : البحث عن الإنسان من حيث إنه مفكر ، وهذا هو علم المنطق

الرابع : البحث عن الإنسان من حيث إنه مفكر يريد أن يعبر عما يجول فى خاطره من صور وحكم ، وهذا هو علم البيان .

وبرغم أن أرسطاطاليس تلميذ لأفلاطون فإنه يختلف عن أفلاطون فى أنه لم يعمد إلى تلك المبادىء الخيالية التى عمد إليها أستاذه ، بل سعى إلى الربط بين القديم والحديث عن طريق الحقيقة ، ووضع بعض الأنظمة والمبادىء العلمية التى هى أقوى وأمتن من أنظمة أستاذه ومبادئه . ولقد سماه أفلاطون بالفيلسوف الواقعى ، كما سماه « شيشرون » برجل النصاحة ذى المعلومات الجامعة والفكر الواضح[1]

إن تفكير أرسطو يتميز بجرأة أقل وبواقعية أكثر من تفكير أفلاطون ، ويعد إنتاجه الرئيسى فى الميدان الذى يهمنا هو كتابه « السياسة » ، ففيه يقوم بدراسة مقارنة للدساتير السياسية والمنظمات بوجه عام لجميع المدن الإغريقية وبعض الدول المشابهة لها مثل قرطاجنة ، وقد حاول دراسة الظواهر الاجتماعية بالطريقة التى أراد أن يدرس بها الظواهر الطبيعية والظواهر النفسية وما بعد الطبيعة .

ونحن نجد فى اجتماعية أرسطو عدداً كبيراً من التعبيرات ومن

---

(١) للمترجم .

الأفكار التي أصبحت تعبيرات وأفكارا كلاسيكية : مثل هذا التعبير المشهور «الإنسان حيوان سياسي» « L'homme est un animal politique » أي أنه مرتبط تمام الارتباط بالحياة في مجتمع ، فلا يمكن فهم الإنسان بمفرده معزولا عن الإطار الاجتماعي الذي يعيش فيه ، وهذه الحقيقة صحيحة سواء بالنسبة لخلود الجنس أو الدفاع عن الحياة والمحافظة عليها . أو تطور الآراء والقوى الأخلاقية التي تعتبر نهاية كمال الإنسان . وهو يبرز تأثير المناخ على السيكولوجية الاجتماعية .

ويقول : إن الأسرة هي الوحدة الاجتماعية ، أي أنها هي الذرة التي لا تقبل القسمة والتي تكون مع ذرات أخرى تشبهها الجسم الاجتماعي . على عكس فلسفة أفلاطون الاجتماعية التي تقوم على هدم الزواج والقضاء على الأسرة .

وهناك اقتراحات أخرى لأرسطو في الميدان الاجتماعي كانت بمثابة قواعد هامة لخلق مدارس اجتماعية فيما بعد ، ومن أهم هذه الاقتراحات ما يلي :

يعتبر أرسطو أن المجتمع عبارة عن مخلوق حي خاضع لقانون الولادة والنمو والموت ، وهو يشير إلى أن التغيير هو الشرط الوحيد لحياة المجتمعات وتشكل هذه المجتمعات من عناصر متباينة ينتج عنها التسلسل في المراتب والحكومة وتقسيم العمل . وينتج من ذلك كله نظام من التوازن ، وقد يفقد هذا التوازن نفسه :

أولا — عندما يزداد عنصر من عناصر المدنية في عدده عن العناصر الأخرى .

ثانياً — عندما ترتفع نسبة مجموعة السكان بطريقة لا تحدها حدود . ويقول أرسطو فى هذا الصدد : إن الدستور القديم يصبح غير ملائم للأوضاع الجديدة ، فكل دستور يتلاءم مع عدد معين من السكان .

وكان أرسطو مثل أفلاطون ومثل جميع الفلاسفة السقراطيين بوجه عام تساوره دائماً فكرة الخوف من الفتن والاضطرابات التى كانت تضطرم بها دائماً المدن الإغريقية ، وكان يعزو هذه القلاقل إلى عدم المساواة بين الطبقات ، إذن فلابد للقانون أن يبحث له عن علاج لهذه المشكلة ، ولكنه يرى أن تحقيق المساواة لا يمكن أن يتم إلا عن طريق التحكم فى عدد السكان ، وهو يقول :

« إذا أراد المرء أن يحدد القيمة النسبية للثروات » فسيقوده ذلك إلى تحديد عدد الأطفال ، وبدون ذلك سيعود عدم المساواة إلى الظهور من جديد . وبذلك تتشكل طبقة من الفقراء ، وقد يكون من الصعب علينا أن نحول بينهم وبين القيام بثورات »

وبرغم أن أرسطو يثق دائماً فى الذاتية الخلاقة فإنه بخصوص السكان يعتنق مذهب التدخل والتوجيه : فهو يتجه فى هذا الميدان إلى تحديد سن الولادة وجعلها إجبارية فى بعض الحالات وإلى منعها فى حالات أخرى بفرض الإجهاض أو وأد الأطفال .

توسيديد Thucydide (نحو ٤٦٠ — نحو ٣٩٥ ق.م)

من أكبر المؤرخين الإغريق ، وطريقته التى عرف بها هى أنه يذكر حقائق التاريخ بكل عناية ودقة ، ثم يحاول أن يفسر أسبابها . ويعد مؤلفه « تاريخ حرب البلوبينيز » من أغنى المؤلفات فى قصص الحروب ، فهو

لم يقتصر على ذكر الحوادث ومدح الشخصيات الكبيرة ، بل كان همه البحث عن تفسير الظواهر التاريخية ، وهو يحلل المعتقدات والاتجاهات والقوى والمصالح المتضاربة فى هذه الحرب الغامضة . ومع ذلك فقد اختتم مؤلفه هذا بتوضيح الدمار والتخريب الذى لاقاه العالم اليونانى على يديه هو ، لا على يدى عالم آخر ، ويعتبر هذا المؤلف كذلك فاتحة عهد جديد فى فلسفة التاريخ .

وخلاصة القول أن دراسة هؤلاء الرواد الإغريق بعلم الاجتماع من الأهمية بمكان ، لأنهم عرفوا الواقع والاتجاهات التى انبعثت منها فيما بعد جميع المدارس السياسية والاجتماعية . ويمثل أفلاطون الاتجاه « المتشدد » هذا الاتجاه الذى يوجس خيفة من الذاتية والأصولية ويشعر بعدم الثقة فيهما .

وينتمى الفرد فى نظره جسما وروحا إلى المدينة ، ومعنى هذا القضاء على كيان الأسرة التى تتعارض مع كيان الجماعة ، وهو يعتبر أن الدولة لها الولاية الوحيدة على القانون والأخلاق ، وهو يوصى بالرجوع إلى البساطة وإلى التقشف البدائى ؛ وبذلك يعارض كل ارتقاء اجتماعى للأفراد ، وهو يريد تحديد النسل فى طبقات ثابتة لا تتغير وفى أعمال محدودة عن طريق السلطة .

ويمثل أرسطو الاتجاه المضاد ؛ فى اعتقاده أن علم الاجتماع — قبل كل شىء — علم ملاحظة . والمجتمعات عبارة عن مخلوقات حية تكون القاعدة فيها هى الحركة . واختلاف البيئة والتكوين هما اللذان يفرضان عليها الخلافات والاضطرابات .

الفكر الاجتماعي عند الرومان

وبعد أرسطاطاليس لم تجر هناك بحوث اجتماعية تقريباً ، وقد اتجه التفكير الإغريقي فيما بعد إلى ميادين أخرى .

أما الرومان فلم يأتوا بجديد على المفهوم الأصلي لعلم الاجتماع ، ولكن الفكرة الرومانية أدت دورا كبيرا في علم الاجتماع الوصفي ، وقد أتاحت لهم فتوحهم الفرصة لدراسة عادات البلاد الأخرى ومنظماتها كفتوح الامبراطور تاسيت Tacite بالنسبة للجرمانيين وفتوح يوليوس قيصر Jules César بالنسبة للغال .

ويمتاز التفكير الروماني بطابعه العملي ، والشيء الغريب حقاً هو أن الفكرة الاجتماعية للامبراطورية العظيمة في الطرف الآخر من العالم تتشابه تماماً مع الفكرة الرومانية ، وزيادة على ذلك .. فإن خصائصها مماثلة لها كل التماثل .

ويقول لوى ويبير Louis Weber : إن تجرد الرومان العلمي لا يواتيه غير أهل الصين . لقد أخرج الرومان ، مثلهم في ذلك مثل أهل الصين ، رواداً مبرزين في علم الأخلاق مثل شيشرون Cicéron و « سينيك » Sénéque .

وكانت روما الأمبريالية هي الواضعة الحقيقية للقانون الحديث والتي عرفت أن تستخلص منه عبر عدة قرون المبادىء الأساسية . وبذلك أمكن الانتقال من ضيق القانون القديم وشكلياته إلى وضع القانون الطبيعي .

وينتج عن ذلك تطور بطيء للحالة العامة للإنسانية وللعلاقات الاجتماعية . وتشكل هذه المفاهيم وهذه المعتقدات التي توجه هذه العلاقات ما يمكن أن يسمى بعلم الاجتماع الحقيقي .

الثورة المسيحية

عندما نتحدث عن المنظمات الديموقراطية للمدن الاغريقية ، يجب ألا يغيب عن بالنا أن هذه المنظمات كانت تطبق مبادئها على قلة من المواطنين . وكان الأرقاء بعيدين كل البعد عن التمتع بهذا الحق ، وكان من رأى بعض الفلاسفة أن للرقيق شخصية خلقية تعدل شخصية سيده ، وأن قتل الرقيق جناية تعدل قتل الحر ، وأن الإساءة إليه تعدل الإساءة إلى الحر .

وقد دعا « سان بول » إلى تنقية مبادىء الإيمان بعبادة إله واحد من شوائب العادات القديمة اليهودية : مثل الطقوس الدينية وتقديس الأشخاص أو الأشياء ، وقد أدى الأخذ بالمسيحية إلى نبذ فكرة تسلسل الآلهة التي أدت إلى تبرير نظام الطبقات في الحياة الاجتماعية .

وكان المفهوم الجديد للعالم يتميز بروح المساواة ، ويعتبر الجميع سواسية أمام الله ، وهذا يناقض منطقياً نظام الطبقات الذي جرت عليه المجتمعات القديمة . وأصبح القانون وعلم الأخلاق شائعين بين جميع الناس على حد سواء ، ولم يعد الفرد ملكا خالصاً للمدينة على حسب المألوف القديم . وأصبحت واجباته الأخلاقية والدينية تفوق واجباته السياسية ، وبذلك لم تعد الدولة هي الخالقة للقانون والأخلاق .

القديس أوجستان Saint Augustin (٣٥٤ — ٤٣٠)

كتب القديس أوجستان مؤلفه « مدينة الآلهة » La Cité de Cieu في عصر من أقسى العصور فى تاريخ الإنسانية فقد استولى الأريك Alaric على روما . وكان لسقوط هـذه المدينة وتدميرها وقع فى نفوس الذين عرفوها وخبروا مافيها من ثقافة وعلم وعرفان. وكان للوثنيين نصيب كبير فى سقوط المدينة العظيمة ، ولشدة تأثر القديس أوجستان من هذا الموقف أخذ على نفسه تدوين الحوادث الدامية فأخرج مؤلفه هذا .

ويبرز لنا هذا المؤلف صورة جامعة للحضارة فى العصور القديمة ، وكذلك نظرة إجمالية على تاريخ روما ، ومن الوجهة الاجتماعية البحتة نجد فى هذا المؤلف عدداً من الأفكار والتحليلات التى تعتبر دعامة قوية للمفاهيم القضائية والاجتماعية الحديثة ، فقد عرضت ونوقشت فيه كل الآراء التى أدت دوراً هامـًا فى حياتنا الاجتماعية فيما بعد ، وكذلك عرضت فكرة القانون الطبيعى ، والحرية الطبيعية للإنسان وممارسة السلطة عن طريق الاكراه .. الخ ، ونلمس فيه كذلك الخطوط العريضة للنزعة الانسانية كما ستتحدد فيما بعد .

وتتضح مثالية أوجستان من مدى التناقض والتعارض بين مدينة ، الإنسان وبين « مدينة الله » التى أطلقها على مؤلفه . وقد يعبر بهذين ، الإسمين عن اتجاهين متداخلا كل منهما فى الآخر .

فالاتجاه الأول يعنى الخضوع للمادة وعبادة الشهوات والقوة وحب الذات .

والاتجاه الآخر يعنى « التفانى فى حب الله لدرجة احتقار الذات ،

أى الإيمان والخضوع ، واحترام العدالة والرغبة فى البذل والتضحية . ويقوم الاعتقاد الدينى بدور مثالى فى دفع الناس نحو بلوغ الكمال » .

وتدعو المدينة السماوية إليها مواطنين من جميع الأجناس،وهى تشكل مجتمعاً من الناس من كل لغة وهى لاتلغى شيئا ولا تدمر شيئا من عادات مجتمعاتها ، وهى تنقل السلام الدنيوى إلى السلام السماوى . »

أما من ناحية شكل الدولة فإن أوجستان لا يفضل شكلا على شكل آخر . وهو يوصى بأن من رجاحة العقل السياسى أن تسود العدالة جميع الناس ، إذ بدون عدالة « لاتعنى كلمة « ملك » سوى قاطع طريق ، ولا يقصد بمعنى « مملكة » إن دلت على معنى غير معناها الذى وجدت من أجله إلا مخبأ للصوص وقطاع الطرق » .

ويعتبر مؤلف أوجستان إلى حد كبير نقطة انتقال بين الحكمة القديمة والحكمة الجديدة، وتكمن قيمته وروعته فى أنه جمع بين الحضارة القديمة والحضارة المسيحية،وشرح كيفية الانتقال من الحضارة الأولى إلى الحضارة الأخرى .

ويعتبر هذا المؤلف آخر المؤلفات الرومانية ، وكان هذا المؤلف من المؤلفات المفضلة التى قرأها واستوعبها شارلمان ، وقد نهلت منه جميع المذاهب التى أضاءت له طريقه ، وهدته إلى حسن السياسة التى رسمت مستقبل أوربا السياسى .

وهكذا نجد فى مؤلفات علماء الجغرافيا ومحبى الأسفار وعلى الأخص منذ عصر هيرودوت Hérodote .. مقارنات كثيرة بين الحضارة اليونانية وبين حضارة الشعوب الشرقية والافريقية . واستمر هذا الاتجاه فى العصور الوسطى أولا عن طريق علماء الجغرافيا العرب مثل الإدريسى

(١٠٩٩ – نحو ١١٦٤) ، وابن بطوطة (١٣٠٤ – ١٣٧٨) وبعض الرحالة مثل بولو (١٢٥٤ – ١٣٢٣) الذى يعتبر مؤلف أول بحث فى وصف بلاد الشرق الأقصى ، ثم أتت بعد ذلك القصص الاسبانية عن كشف العالم الجديد ، وأدب الرحلات وبقية الفتوح الأخرى التى بدأت منذ القرن السابع عشر .

ومن الصعب علينا أن نلمس فى مؤلفات القرون الوسطى صورة واضحة عن علم الاجتماع ، ولانملك الآن مؤلفات عصرية تتحدث لنا بطريقة منظمة عن تشكيلات المجتمعات فى القرون الوسطى .

وكان هناك فى ذلك العصر اتجاهان هامان :

الاتجاه الأول : ينصب على الفارق البين – كما دعا إليه القديس أوجستان – بين العالم الزمنى والعالم الروحى . ويضاف إلى ذلك التشاؤم الفظيع الذى نتج عن المكانة الكبيرة التى جعلتها مجتمعات القرون الوسطى للإيمان « بالخطيئة الأصلية » ، وعقاب « النار » فى الدار الآخرة .

الاتجاه الآخر : كانت مجتمعات ذلك العصر تتأرجح تبعاً للحوادث والظروف بين الآراء الحرة للقديس أوجستان وبين الالتزامات الارستقراطية التى كان يتطلبها نظامها الاقطاعى ، وقد حرمت المسيحية على رجال هذه الطبقة أن يفرضوا التزاماتهم : مثال ذلك عدم زواج القساوسة لتلافى تشكيل طائفة كنسية على غرار طائفة الهند أو طائفة مصر القديمة .

ولنضف إلى ذلك ظاهرة أخرى فى غاية الأهمية انتشرت فى مجتمعات

القرون الوسطى ، ألا وهى النزعة الوجدانية . وهذه الظاهرة نفسها انتشرت في المجتمعات البوذية كذلك .

وهكذا كانت معظم الأبنية التى تقام لعدّة قرون فى العالم الغربى مقصورة على الأديرة وكهوف التعبد .

ابن خلدون (١٣٣٢ — ١٤٠٦)

ولد ابن خلدون فى تونس من أسرة أندلسية نزحت من الأندلس إلى تونس ، ولما شب وترعرع عكف على التحصيل والدرس حتى بلغ الثامنة عشرة ، وبدأ حياته بدراسة الحديث والفقه المالكى وعلوم اللغة والشعر ، ثم درس المنطق والفلسفة فيما بعد فى أثناء حياته العملية .

ولم يكتب مقدمة مؤلفه التاريخى إلا وهو فى نحو الخامسة والأربعين من عمره بعد أن نضجت أبحاثه ومطالعاته ، وبعد أن خاض معترك السياسة ، وبعد أن تقلب فى خدمة القصور والدول المغربية دارساً شئونها ونظمها ، ومتقصياً سيرتها وأخبارها ، وشاهدا لأحوالها وتقاليدها فى الحياة العامة والخاصة[١] .

وكان لا بد أن ننتظر قرابة عشرة قرون من الزمان لنرى بعث التفكير الاجتماعى الذى توقف منذ وفاة القديس أوجستان ، فابن خلدون كان عبقرية لامعة فى الفكر الشرقى ، وهو يعتبر تلميذا لأستاذه ابن رشد فى الفلسفة . وقد شهد الحوادث التى أدت إلى اختفاء الدول الأخيرة الإسلامية فى إسبانيا . ومولد الفوضى التى تفشت فى شمالى إفريقية . وى

(١) للمترجم

الشرق وصول جيوش التتار بقيادة تيمورلنك بلاد الشام ، وعلى ذلك أثارت الحوادث التى ارتبطت بسقوط كل هذه المنظمات السياسية تفكيره وانتباهه ، ولا يخفى علينا مالمؤلفه « المقدمة » من أهمية كبيرة من الناحية التاريخية والاجتماعية .

وقد اتخذ ابن خلدون من التاريخ علماً يدرس ، لارواية تدون فقط ، وقد كتب التاريخ على ضوء طريقة جديدة من الشرح والتحليل ، فانتهى به التأمل والدرس إلى وضع نوع من الفلسفة الاجتماعية .

بيد أن ابن خلدون ينظر إلى موضوعه من أفق شاسع جدا ،ويجعل من المجتمع الإنسانى كله وما يعرض له من الظواهر الطبيعية مادة لتأمله ، ويحاول أن يتتبع هذا المجتمع بالدرس والتحليل فى جميع أطواره منذ نشأته وبداءته ، وتردده بين الضعف والقوة والفتوة والشيخوخة والنهوض والسقوط . ويستقصى من خلال ذلك أحوال هذا المجتمع وعناصر تكوينه وتنظيمه .. من الفرد والجماعة إلى السلطان والدولة وماتقتضيه سلامة هذا المجتمع وما يؤذن بفساده وانحلاله .

وقد أعطى ابن خلدون التاريخ تعريفاً اجتماعيا حيث يقول :

« يهدف التاريخ إلى إفهامنا الحالة الاجتماعية للإنسان ، أعنى الحضارة ، ويهدف كذلك إلى أن يعلمنا الظواهر التى ترتبط بهذه الحضارة وإلى معرفة الحياة البدائية وتهذيب الأخلاق وروح الأسرة والقبيلة ، وتباعد وجهات النظر فى أن سمو شعوب على شعوب أخرى يؤدى إلى نشأة أمبراطوريات وأسر حاكمة ، وفوارق الطبقات والمصالح التى يكرس لها الناس أعمالهم ومجهوداتهم ، مثل المهن المريحة ، والصناعات التى تعين على

الكسب ، والعلوم والفنون ، وأخيرا جميع التغييرات التى تحدثها طبيعة الأشياء فى سلوك المجتمع ».

ويعتبر تفكير ابن خلدون تفكيراً منتمياً إلى تفكير القرون الوسطى بالنسبة إلى استسلامه للتشاؤم الذى عرف أنه من طبيعته المتغلبة عليه ، وهو يمثل تطور العالم الإسلامى وقتذاك ، وعندما أشرقت شمس الحضارة فى أوربا ، غربت شمس حضارة العرب تحت وقع ضربات الغزو المتلاحقة .

وابن خلدون لم يهتم بدراسة فكرة وجود سلطة شرعية وتنظيم تقليدى للمجتمع ، ولكنه أخذ على عاتقه دراسة أصول التسلطات السياسية ومدة بقائها بطريقة موضوعية ، وتشكيل الدول وانحلالها بعد استبعاد كل فكرة مبنية على قاعدة أو مبدأ . وكانت المشكلة بالنسبة له وصف ظاهرة دورية مستقلة عن الإرادة الإنسانية وتحديد أسباب هذا التعاقب المنظم لهذه الظواهر الدورية .

والنظرية التى أوردها تمثل بعض التشابه مع نظرية الظواهر الدورية التى وضعها أفلاطون ، ومن وجهة نظر ابن خلدون فإن الاختلاف السيكولوجى بين الأجيال المتعاقبة هى التى تفسر تطور الأسر الملكية الحاكمة والارستقراطية الحاكمة . ويقول ابن خلدون : إن الحياة الاجتماعية ما هى إلا ظاهرة طبيعية ، وإن دعائم الحياة تنبثق خاصة من البيئة الجغرافية وتتأثر تأثرا كبيرا بنوع المناخ السائد ، ويؤكد أن الظواهر الاجتماعية أكثر ثباتا من الظواهر السياسية التى هى فى واقعها ظواهر عرضية .

والإنسان هو الكائن الحي الوحيد الذى يحتاج إلى سلطة بدونها لا بد أن تسود الاضطرابات والفوضى ؛ لأن الغرائز الشريرة تكمن فيه. أما من جهة السلطة فانها لا تقوم إلا على القوة ، وهذه القوة تتعلق بالجماعات التى تكتسب السلطة بفضل شجاعتها وتماسكها وتضامنها ، وهذه الصفات التى تخلق الاستعداد لأخذ السلطة ترجع أصولها إلى الحياة البدوية . ولكن ليس من نوع هؤلاء إلا القلة من البدو أو أنصاف البدو مثل الجرمانيين والمغول والتتار والنورمانديين الذين قاموا بكثير من الغزو فى أسرع وقت وعلى أوسع نطاق .

وبعد ابن خلدون بزمن ليس بالقصير ، توقف هذا الأسلوب من الغزوات والتسلط وانعكست القاعدة بعد أن ساد الحروبَ استخدامُ الأسلحة النارية .

ولكن لأسباب سيكولوجية ، لم يعد استمرار التسلط لأسرة حاكمة ، أو لأى حزب ، أو لأية جماعة من الحاكمين أكثر من ثلاثة أجيال أى مايقرب من مائة عام ، لأن ممارسة التسلط والسلطان وما يكتنفهما من ملذات ويسر فى الحياة ، تتمخض لأصحاب هذه السلطة عن أجيال ضعيفة منهارة الأعصاب وفى غاية الانحلال .

ويرى ابن خلدون أن كل انقلاب سياسى لا بد أن يجلب معه البحث عن حل لمشكلة الديون العامة والخاصة ، أعنى نوعا من التصفية المالية العامة ونحن نعرف جيداً كيف أدت ظاهرة الدين دوراً كبيراً فى الموقف الاقتصادى الداخلى للمدن الاغريقية وفى الأضطرابات التى حدثت فى روما والتى أدت إلى سقوط الجمهورية . وهذه الظاهرة دعامة من دعامات تفشى الفتن الداخلية وكثرة الاستبدادات .

وقد ابتدأ دستور سولون Solon بفقرة بوجوب إلغاء الديون ، وقد لاحظ ابن خلدون ظاهرة غريبة ، وهى أن تكاثر عدد السكان يحدث فى نهاية سقوط الأمبراطوريات مما يسبب كوارث اقتصادية ومتاعب لاحصر لها . وابن خلدون فى مؤلفه يحلل عمل الدولة من الناحية الاقتصادية .

ويعد انتاج ابن خلدون بداية هامة لعلم الاجتماع الوصفى ، وهو يشمل تحليلا دقيقاً لمنطقة شمالى إفريقية برمتها ، ومازال ما كتبه ابن خلدون فى هذا الصدد ينطبق على الهيكل الاجتماعى السائد اليوم فى هذه المنطقة من العالم .

الفصل الثاني
العصور الحديثة

عصر النهضة :

ونعنى بعصر النهضة الحركة الواسعة النطاق التى قامت على تجديد الحضارة الأوربية الغربية من القرن الرابع عشر حتى القرن السادس عشر، وبهذه الحركة حل العالم الحديث محل عالم القرون الوسطى . ونذكر أن التطور الذى ارتسم فى هذا العصر تناول الحياة المادية ، والحياة الاجتماعية ، والحياة الفكرية .

والظاهرة الأساسية لهذا العصر هى أن المثقفين فيه والفلاسفة والكتاب والفنانين والعلماء لم تنقطع صلتهم المباشرة بمفكرى اليونان وروما ، ولكن هناك حقيقة لها من النتائج مالا يعد ولا يحصى ؛ ففى القرون الوسطى لم تفترق عقلية المفكرين عن عقلية عامة الشعب ، أعنى أنهما لم يفترقا كلا عن الآخر فى المعتقدات والاتجاهات .

ولكن منذ عصر النهضة ، خرجت الحياة الفكرية عن الإطار الشعبى ، وقد لمسنا هذا الانفصال فى العقلية فى ميدان العلوم والفنون والآداب فى أوائل هذا العصر . أما الانفصال فى ميدان الفلسفة .. فقد تأخر كثيراً عن بقية الميادين الأخرى ، لأن محاولات انفصال الفلسفة عن عقلية عامة الشعب كانت تتأثر كثيراً بتقاليد العصور الوسطى عن طريق حساسية علماء اللاهوت .

ويبدأ هذا العصر بإعداد فلسفة جديدة عن طريق النقد النزيه لفلسفة

المتشككين : وقد تناول هذا النقد الفلاسفة الإيطاليين مثل لارتان L'Arétien وبوكاس Boccace وإلى حد ما .. مكيافللى Machiavel والفلاسفة الفرنسيين مثل رابليه Rabelais ومونتينى Montaigne .

ومن جهة أخرى ، فقد مست يد التغيير « الوسط الاقتصادى » فى نهاية القرون الوسطى ، فنشأت المدن الكبيرة وكانت مركز إشعاع لمناقشة المشاكل الاجتماعية ، ومنها انبعثت مجتمعات جديدة ذات طابع خاص بجانب مجتمع الإقطاعيين . وقد نشأت فى الجمهوريات الإيطالية مدن تجارية وثقافية لتنافس المدن الإقطاعية ، وقد دفعت بعض الاختراعات التكنيكية والاقتصادية إلى سهولة حركة الأموال والأشخاص. وقد ساعد نظام الكمبيالات فى الحد من تهريب الأموال لحساب الإقطاعيين . ونشأت عن ظهور البنوك وبعض الصناعات المهمة علاقات معقدة لم يكن لها وجود فى مجتمع القرون الوسطى ، وكانت أولى البلدان فى خلق هاتين الظاهرتين إيطاليا وهولندا وبلجيكا .

والجدل الذى أثير حول حركة « الإصلاح » دفع المفكرين أن يتعمقوا دراسة كل التراث الدينى والفلسفى ليبحثوا فيه عن حجج وبراهين تعينهم على الإيمان وعلى الاعتقاد فيما ورثوه عن العصور الوسطى .

وبمناسبة المناقشات التى أثيرت حول الانقسامات الدينية بين الشعوب وبين الملوك وبين طبقات النبلاء والملوك ، يدخل عنصر آخر فى المناقشات هو « المشاكل السياسة » ، أو بتعبير أدق مشكلة السياسة . وقد وضعت على بساط البحث والتحليل بين المفكرين أسئلة عن طبيعة السلطة السياسية وشرعيتها وحدودها والتسلسل الاجتماعى ومايطرأ عليه من تغييرات .

ولكن عصر الحضارة لم يقتصر على الأخذ بمفاهيم الإغريق فى كل هذه المشكلات السياسية والاجتماعية . « فاجتماعية » الإغريق ثابتة يسودها التشاؤم . أما المسيحيون الأوائل فقد كانوا متفائلين لاعتقادهم إمكانية تغيير الناس من وجهة النظر الأخلاقية ، ومن جهة أخرى فإن الاعتقاد فى « الخطيئة الأصلية » وتسلط فكرة (الإثم) والعذاب الأبدى فى انتظار نهاية سعيدة ، ضاعفا من تشاؤم مجتمع القرون الوسطى .

وفى هذا العصر اتخذت جميع الأبحاث من المشكلات الاجتماعية طابع التفاؤل ، هذا الطابع الذى لم تعرفه قط ولم تتذوقه قط مجتمعات العصور القديمة والوسطى . وقد تميز هذا العصر أولا بالاعتقاد فى التقدم ، وخاصة فى بداية القرن السابع عشر ؛ فقد أحس الناس بأنهم أكثر رقياً وعلواً عما سبقهم من أجيال . وقد رأى هذا الرأى كل من ديكارت وفيكوولوك ومنتسكيو وفولتير وكوندورسيه ، هؤلاء الذين لم ينكروا أن من سبقوهم من أجدادهم الفلاسفة العظام ، تبوءوا هم كذلك مكاناً مرموقاً فى ميدان علم الأخلاق ، ولا ننسى موقف روسو وتلاميذه من مهاجمة عقيدة « الخطيئة الأصلية » ومن دعوته إلى الرجوع إلى الصفاء أو الطهارة البدائية .

ويلزمنا أن ننتظر حتى القرن الثامن عشر لنرى كيف تبلورت كل هذه الاتجاهات فى العصور السابقة إلى علم اجتماعى موضوعى ؛ ولكن فى مستهل القرن السادس عشر ظهر اتجاهان فى هذا الميدان :

الأول : اتجاه تجريبى لميكافيللى وعلماء الاقتصاد مثل بودان Bodin ومونتكرستين Montchrastien وبوتيرو Botero .

الآخر : اتجاه مثالى يتمشى مع التقليد الأفلاطونى.. أى يواجه حقيقة المدن المثالية ذات التنظيم الخيالى «كاتيوبيا توماس مورس مثلا ، بمدينة الشمس لكامبانيلا .

ميكافيللى وهوبز (١٤٦٩ – ١٥٢٧)

كان مما يخفف من تحكم القوى فى الحياة السياسية فى القرون الوسطى أربعة عوامل :

١ – روح الفروسية التى كانت نتاج المعتقدات الدينية فى العالم المسيحى كما فى العالم الإسلامى على حد سواء ، ومن حقيقة أرستقراطية التنظيم العسكرى .

٢ – تشييد القصور الضخمة التى كانت تستخدم للدفاع .

٣ – الاستقرار المكتسب عن طريق القانون السياسى الاقطاعى والاعتراف بشرعيته .

٤ – المعتقدات الدينية .

وقد حد من هذه القوى بعض العوامل الأخرى وأثارت نوعا جديداً من التفكير فى نهاية القرن السادس عشر وأوائل القرن السابع عشر ، ومن تلك العوامل : ضعف المعتقدات الدينية فى النفوس والانقلابات التى حدثت فى أواخر القرون الوسطى مثل غزوات المغول والتتار والأتراك وسقوط بيزنطة فى الشرق ، أما فى الغرب فالانهيار المطرد للنظام الإقطاعى القديم وتدمير معظم المدن الإغريقية .

ميكافيللى Machiavel (١٤٦٩ — ١٥٢٧)

ولد نيكولو ميكافيللى فى مدينة فلورنس ، وبعد أن شب وترعرع اشتغل سكرتيراً للسياسة الخارجية فى حكومة موطنه الأصلى ، وفى هذا المنصب قام بعدة مهام سياسية فى إيطاليا وفرنسا وألمانيا . ولما تبوأ آل مديتشى الحكم للمرة الثانية فى فلورنس عام ١٥١٢ قبض عليه بتهمة التآمر ، وتعرض لعذاب شديد وهو فى السجن ، ثم أفرج عنه بوساطة البابا ليون العاشر ، وبعد خروجه من السجن اعتزل الحياة العامة وكتب عدة مؤلفات شهيرة منها كتابه « الأمير » .

وتختلف دراسة ميكافيللى عن ابن خلدون للتاريخ وللظواهر الاجتماعية ، فهو يركز دراسته على الدولة فقط أو على أنواع معينة من الدول القديمة ، وخاصة تاريخ إيطاليا فى عصره ، ثم يحلل شخصية رئيس الدولة وما يتصف به من صفات حسنة أو سيئة . ويمتاز أسلوب ميكافيللى بسلامة المنطق ، ودقة العرض والتحليل وصفاء الأسلوب .

إذن فميكافيللى يستمد آراءه ونظرياته من حوادث التاريخ القديم وبالأخص من حوادث العصر الذى عاشه ، فهى حوادث شهدها بنفسه ، وخبرها ثم بنى عليها أحكاماً وقواعد عامة .

وهو يدعو فى فلسفة السياسة إلى النفاق والشح والضعة والقسوة والإرهاب والغدر وعدم الإخلاص وإهدار الصداقة والأمانة والدين ، مما ينافى المثل الفاضلة وتشمئز منه الاخلاق الإنسانية . كل ذلك طالما أنه يرضى الرغبة فى التسلط والشهوة الملحة فى السيطرة على الحكم ، فهى لا تتنافى مع الخلق والمثل العليا ، ومن ثم كان رئيس الدولة الأمثل فى نظره من اتصف بهذه الصفات .

وبالرغم من طابع هذه الفلسفة السوداء فإنه يصوغ فلسفته وآراءه فى كثير من القوة والبراعة وبعد النظر . وهذه النظريات والمبادىء مازالت مسيطرة كل السيطرة على عقول بعض الساسة فى القرن العشرين . ومع الأسف فإنها تظفر بالنجاح فى بعض الميادين ، وقد عرفت باسم « السياسة المكيافيلية » [1]

وتبين حالة كل من ميكافيللى وهوبز أنه عندما تضعف المعتقدات فى المبادىء الأخلاقية والتشريعية التى هى أسس كل تنظيم سياسى ، ينتج عن ذلك فراغ كبير فى ميدان الآراء . وإذا ما اختل مقياس صواب القانون ، نرى تغلب فكرة القوة . وتقوم حياة المجتمعات عند ميكافيللى على ممارسة القوة ، وتتلخص سيكولوجية مثل هذه المجتمعات فى الجملة المشهورة التى نطق بها ميكافيللى « عند الناس ميل للشر أكثر من الخير »

ولكن فلسفة ميكافيللى لم تقتصر على مثل هذه الاعترافات ، بل انه حاول أن يستخلص من التجربة التاريخية علما سياسياً .. أو بالأحرى فناً قائما على تحليل دقيق للقوى والمصالح المتنافرة التى تتقابل معاً ثم يصطدم بعضها ببعض داخل الدولة . وهو يشرح ويعرض التاريخ الرومانى على هذه الصورة . وتحتل المنظمات السياسية الرومانية مكانة عظيمة ، لأنها وصلت إلى الجمع بين ثلاثة نظم مختلفة : ملكية ، وارستقراطية ، وديموقراطية .

والأهمية التى يتصف بها هذا المؤرخ الفلورنسى هى أنه أعطى فلسفة التاريخ « والسياسة الاجتماعية » وجودا مستقلا .

---

(١) للمترجم

ديكارت Descartes (١٥٩٦ — ١٦٥٠)

ولد فى « لاهاى » La Haye فى إقليم تورين وتلقى تعليمه فى مدرسة الجزويت ثم درس القانون فى باريس ، ثم بدأ سلسلة من الرحلات فى ألمانيا وهولندا وسويسرا وايطاليا واشترك فى حرب الثلاثين . وقد عرفته هذه الأسفار « بعالم الناس » والحق أنه كان محيطا بكل ماكان فى مقدور الإنسان أن يحيط به فى عصر كانت فلسفته منهجاً للتفكير الواضح ، ومن ثم التفكير المفيد فى العالم من أجل التوصل إلى السيطرة عليه والحصول على قدر أكبر من الرفاهية للبشر[١] .

والطريقة الديكارتية التى نفذت عليها عقول الفلاسفة الذين أتوا من بعده ، وأحدثت دويا فى عالم التفكير القائم على العقل ، لم تهمل بتاتا دراسة العلوم الاجتماعية والمذاهب السياسية ، ولم يكن يريد أن يتعرض لمثل هذه الأمور ، انظر حيث يقول :

« قررت ألا أبحث عن أى علم .اللهم إلا معرفة نفسى أو معرفة كتاب العالم الكبير ، وقضيت شبابى فى السفر وزيارة القصور والجيوش والتعامل مع رجال من مختلف الاستعدادات والمراتب وجميع التجارب المختلفة وتجربة نفسى فى مختلف الأوضاع » .

ومع ذلك ، نجد فى مؤلفات ديكارت بعض وجهات النظر التى تشكل آراء واضحة وأفكارا خصبة فى مادة الاجتماع ، وهو يؤكد أن كل تقدم اجتماعى لابد أن يسبقه تقدم فى الفن الطبى ، « لأن الروح تعتمد بقوة على المزاج وعلى مدى استعداد أعضاء الجسم . وإذا كان من الممكن

(١) للمترجم

أن نجد بعض الوسائل لنجعل الناس أكثر حكمة واتزانا فإننى أعتقد أنه يمكن أن نجدها كذلك فى الطب .

سبينوزا Spinoza (١٦٣٢ — ١٦٧٧)

ويمثل سبينوزا نقطة انطلاق فى عالم الفكر ويصور ثورة كاملة على عقلية العصور الوسطى ، فهو يمثل مرحلة جديدة من التاريخ البشرى فى طريقها إلى الظهور ، مرحلة كشفت عن آفاق جديدة كما حملت فئات اجتماعية جديدة إلى عالم النور . وقد ذهب فى آرائه الفلسفية أبعد مما ذهب فيها ديكارت وخاصة فيما يتعلق بالظواهر الاجتماعية .

وهو يقول :

« إن الناس يعيشون فى الأصل تحت سلطان العاطفة وحقوقهم لا تعادل إلا قوتهم فى صراع دائم . »

وقد عالج بأسلوب جديد المشكلة الكلاسيكية فى فلسفة القرون الوسطى وهى التمييز بين الأفراد : كيف يمكن أى فرد أن يحافظ على حقيقة وجوده فى حين أنه جزء من المجتمع ؟ .

وهو يرى أن هذه المشكلة يمكن حلها بضرورة التعاون بين أفراد المجتمع بعضهم وبعض

ويرى أن الإنسان لا يستطيع عن طريق مساعدته الخاصة أن يصل إلى القوة وإلى حرية الفكر على وجه أكمل . ويستحيل الحصول على المعرفة العلمية الحقيقية وكذلك الحياة المادية إلا بالاتحاد القوى . وكلما حصل الفرد على قسط أكبر من الحرية ومن القوى الثقافية .. كلما قل الصراع بين الأفراد فى المجتمع ، وهذا يؤدى إلى دفع هؤلاء إلى البحث عن كل ما يفيدهم ويفيدهم كمجموعة .

ويثور سبينوزا ضد مبادىء الأخلاق فى القرون الوسطى التى كانت تدعو إلى التقشف فى الحياة وإلى التعبد والتكفير عن الآثام .

وهو يقول فى هذا الصدد : إن اللذة أمر حسن فى ذاته ، والألم أمر سيء فى ذاته كذلك، ولهذا فإن الحقد والخوف والاحتقار والتوبة والخضوع تعد أموراً سيئة وتكمن الحكمة الحقيقية فى تأمل الحياة لافى تأمل الموت .

إن الطبيعة الإنسانية لاتختلف فى إنسان عن آخر ، وعلى ذلك فليس هناك داع إلى الخوف من الناس ، والنتيجة ضرورة وجود احتياجات أمن أكثر ضد هؤلاء الذين يحكمون تجاه الذين يُحكمون .

ويقول سبينوزا : إن المجتمع الذى يشكل عن طريق تعاون الأفراد وتضامنهم هو المجتمع الذى يحافظ على خصائصه الطبيعية « أعنى اتجاهاته الفطرية » . إذن فالمجتمع عبارة عن وحدة فيزيقية خاضعة لقوانين جوهرية فى جميع أجزائها . ومجموعة هذه القوانين التى لايقوى المجتمع على تغييرها إلى أى شيء والتى عليها يرتكز المجتمع بثقله تسمى القانون الطبيعى ، ومن وجهة أخرى فإن المجتمع عبارة عن جهاز من القوى ، ولا يعتبر مجتمعاً ذا قوة وذا حقيقة واقعة إلا إذا منحه الأفراد هذه القوة وتلك الحقيقة فى جميع الأوقات .

« والمجتمع الذى يقوم فيه السلام على جمود أفراده وسكوتهم التام وعدم الحركة — هؤلاء الأفراد الذين يتركون أنفسهم يغدون ويروحون كقطيع ، ومن ثم لايمارسون إلا العبودية — لا يُعَدُّ مجتمعاً بأية حال ، بل يعتبر وحدة لاحياة فيها .

وعلى ذلك يرى سبينوزا أن الاستقلال الفردى والوحدة العضوية

للدولة يعتمد بعضهما على بعض اعتمادا مباشرا ، فالفرد الاجتماعى يستطيع أن يتعايش مع أفراد آخرين ليشكلوا عن طريق مشاركة الوجدان بينهم فردا جديدا أكثر رحابة . . وهكذا إلى مالا نهاية .

وفى هذا العصر تشكلت مجموعة من المذاهب والنظريات التشريعية التى تعالج القانون الطبيعى للانسان والقانون الدولى .

لوك Locke (١٦٣٢ — ١٧٠٤) ويونج Young

ولدفى ورنجتون وهو فيلسوف انجليزى ، اشتهر بأنه من روادالفلسفة التجريبية . والفلسفة التجريبية هدفها تطبيق العقل على عدد من الأفكار والأنظمة التى كانت تساند الامتيازات.وكانت فلسفةلوك تنصب على مهاجمة التقاليد والحكم التعسفى وسلطة الكنيسة . وكانت هذه الفلسفة تعبيراً صادقا عن آمال الطبقة المتوسطة النامية فى انجلترا والتى اصطدمت آراؤها وآمالها فى الحياة بالأسرة المالكة وبالمجتمع الأرستقراطى وبسلطة رجال الدين . وكان تصارع كل هذه الطبقات من أجل الحصول على قدر من الحريات السياسية والاقتصادية . وكل آرائه التى دوّنها هنا وهناك جمعها فى كتاب أطلق عليه اسم « محاولة فى المفهومية الإنسانية » .

ودعوةلوك إلى تنظيم الكنيسةوالدولة طبقاً للمبادىء التى أثبتت التجارب العلمية أنها تؤدى إلى سعادة المجتمع ورفاهيته ، إنما كانت ثورة بمعنى الكلمة على الأفكار الموروثة والتقاليد المرعية فى المجتمع الانجليزى .

وقد انتشرت أفكار لوك فى بقية بلاد أوربا بوجه عام وخاصة فى فرنسا حيث نقلها عنه الفيلسوف فولتير وآمن بها كثير من فلاسفة الغرب فى ذلك العصر ، وأطلقوا عليها اسم فلسفة التنوير ، وكانت بمثابة مقدمة — مع مبادىء أخرى مجتمعة — للثورة الفرنسية .

وكان لوك يعتقد أن هناك نظاما طبيعيا للمجتمع لايحيد عنه ، نظاما يقبله العقل ولا ينقضه الواقع الذى نعيش فيه . وهناك اتفاق طبيعى بين أفراد المجتمع للمحافظة على حقوقهم وحماية ممتلكاتهم . ومن فوق هذا النظام هناك نظام مغاير للطبيعة ، ومناف للعقل : ألا وهو نظام الامتيازات والأنظمة الطبقية . ولوك يهاجم بشدة بعض المساوى التى يلمسها فى مجتمعه الإنجليزى ، ومنها الاغتصابات التى تقوم أساساً على أفكار قبلية وهو بذلك ينبذ الافكار الموروثة التى لاتساير العقل والواقع الذى يعيشه والمبادئ القبلية التى عاشها وشهد مساويها فى المجتمع الإنجليزى .

ومن أهم الأفكار التى نادى بها لوك تلك الفكرة التى تقول : إنه عندما تعتدى حكومة ما على حقوق الإنسان الطبيعية أو تفشل فى احترامها والمحافظة عليها ، تصبح الثورة مشروعة من الناحيتين الطبيعية والعقلية .

ومن ثم كان لفلسفة التنوير — التى التصقت باسم لوك — تأثير كبير على الفلاسفة الأحرار الذين نقلوا المجتمع من ظلمات العصور الوسطى إلى أنوار الحقيقة . وهذه الفلسفة تنادى إلى جانب ذلك بأن الإنسان طيب بطبيعته وأنه نتاج البيئة إلى حد بعيد أو نتاجها كلية ، وتنادى كذلك بوجوب ممارسة الإنسان لكل ماهو إنسانى حقا .. بحيث يتعوّد ممارسة ذاته ككائن بشرى . وإذا كانت الظروف هى التى تصوغ الإنسان فمن الواجب أن تصاغ هذه الظروف بطريقة إنسانية ، وإذا كان الإنسان اجتماعيا بطبيعته فإنه لا ينمى طبيعته الحقيقية إلا فى المجتمع . ومن ثم لاتقاس مدى قوة طبيعة الفرد فى المجتمع ، إلا بما للمجتمع من قوة ، وإذا كانت المصلحة الشخصية المستنيرة مبدأ كل نظام أخلاقى ، فيترتب على ذلك أنه يجب أن نعمل على التقاء مصالح الإنسان الخاصة بالمصالح البشرية جميعاً . وبذلك

كان لوك يؤمن بأن المبادئ البسيطة للحياة الاجتماعية التى تضمن للناس حريتهم وملكيتهم مبادئ عقلية وطبيعية معاً [١] .

لقد بين كل من « لوك » و« يونج » بنظرياتهما عن توارد الخواطر .. الشروط السيكولوجية للتكامل الإنسانى . وقد قدما عددا من المبادىء كانت الأساس لما سمى فيما بعد « بفلسفة الأنوار » .

وقد حاول أحد الكتاب الانجليز وهو « ماندفيل » — فى مؤلف أحدث عاصفة من النقد عند ظهوره ونعنى به « أقاصيص النحل » — أن يبين أن العيوب التى يندد بها رجال الأخلاق كالشره . والنهم والكبرياء والخيلاء وغير ذلك من العيوب التى سمحت بتقدم المدنية والفنون .

أما بالنسبة « للفيزيوقراطيين » Phgsiocrates فهم يؤمنون بوجود عدد معين من القوانين الطبيعية التى تحكم حياة المجتمعات .. على الأقل حياتها المادية . وتؤمن المدرسة « الفيزيوقراطية » التى أسسها كيسناى Quesnay طبيب مدام دى بومبادور .. بأن هذه القوانين ضرورية ودائمة تماما كالوظائف العضوية للجسم الإنسانى . وهذه القوانين تتحقق بنفسها ، أى أن أى تدخل يعرقلها ويشلها . وقد يكون « الفيزيوقراطيون » خير من يمثلون عقلية القرن الثامن عشر ، فهم يعتبرون التنظيم الطبيعى هو التنظيم الأمثل ، ويعتقدون كذلك أن التقدم الاقتصادى وتطور المدنية يُعَدَّان من الأمور الطبيعية التلقائية ، وأن أى تدخل يوقف هذا التقدم ويعرقله .

---

(١) للمترجم

آدم سميث Adam Smith (١٧٢٣ — ١٧٩٠)

ولد في كير كالدى في اسكتلندا ، ويعتبر من أوائل الذين عالجوا المشاكل الفلسفية والاقتصادية . ومن وجهة نظره أن الاقتصاد والفلسفة توأمان لايفترق كل منهما عن الآخر وهو مؤلف كتاب « أبحاث عن الطبيعة وأسباب ثروة الشعوب »

وهو صاحب نظرية أن العمل سبب الثروة ، وأن القيمة تقوم على العرض والطلب ، وأن التجارة يجب أن تحرر من كل تحريم ومن كل تقييد . (١)

ويضيف آدم سميث إلى نظريات الفلاسفة الطبيعيين وجهات نظر أخرى فلسفية تتشكل منها نظم اجتماعية ذات أهداف أكثر قوة واتساعا. والواقع أن آدم سميث مؤسس المدرسة المتحررة فى الاقتصاد بدأ أول مابدأ عالماً نفسانياً وعالماً فى الأخلاق.ونظريته فى علم الاجتماع هى نظرية الفلاسفة الطبيعيين فى علم الاقتصاد تعنى أن هناك قوانين طبيعية لتنظيم المجتمع ، قوانين صادرة عن العناية الإلهية ، وأننا يجب ألا نقف حائلا بينها وبين استخدامها ، فهى دعامة من دعامات تطور الحضارة .

كوندورسيه Condorcet (١٧٣٤ - ١٧٩٤)

فيلسوف ورياضى فرنسى ، ولد فى ريبمونت . وقد اشتهر عنه أنه عالج كثيراً من المشاكل السياسية ، ومن أجل هذا قبض عليه وأودع السجن ، وقد حاول الانتحار بتناول السم ثم أنقذ فى آخر لحظة .

---

(١) للمترجم

ويقول : إن التقدم عبارة عن تجمع المعارف العلمية وتطبيقاتها وهى التى تعين على رفع مستوى مستقبل الإنسانية . وطالما أن الطبيعة تمنح العلم معيناً لا ينضب من الاكتشافات فإن صفة الكمال للجنس البشرى تبلغ والحال هذه حداً لا يمكن وصفه .

وفى كتابه « صورة عن تقدم الفكر الإنسانى » يصف المراحل التى مرت بها الإنسانية توا ، ثم يرسم فى الوقت نفسه الخطوط العريضة للتطورات المرتقبة ، وهو يقول :

« سيأتى وقت لن تشرق فيه الشمس إلا على عالم من الرجال الأحرار الذين لا يعترفون بسيد سوى عقولهم ، وعندئذ لن يكون هناك طغاة أو عبيد أو كهنة أو أدوات أولئك من الأغنياء والمنافقين إلا فى كتب التاريخ وعلى خشبة المسرح » .

كنت Kant (١٧٢٤ — ١٨٠٤)

ولد هذا الفيلسوف الألمانى فى كوينجسبرج ، وهو أول من قام بالدعوة إلى التصالح بين العلم والدين ، وأفكاره فى هذا الميدان تعتبر من أعظم الأسس الفكرية التى عبر عنها عقل الإنسان . وكان « كنت » يعرف تماماً إفلاس المفاهيم الدينية التقليدية والطابع الاجتماعى والرجعى للدول الألمانية الصغيرة ، ولكنه لم تكن لديه الشجاعة الكافية لقطع صلته بالقديم .

ويقول آدم سميث : إن أعمال الأفراد تؤدى فى مجموعها وفى هدفها الأخير إلى خدمة المصلحة العامة للجماعة . و « كنت » يشرح هذه الفكرة نفسها بطريقة ميتافيزيقية وينتهى بها إلى النتائج التى انتهى إليها آدم سميث نفسها .

و «كنت من وجهة نظره يرى أن نظرية الحكم الحر وتلقائية الفكرة والأعمال الإنسانية تؤدى إلى الانسجام الاجتماعى ، وكذلك نظرياته الميتافيزيقية بطريق غير مباشر تؤدى إلى نتائج ملموسة فى الميدان الاجتماعى .

جان جاك روسو J. J. Rousseau (١٧١٢ — ١٧٧٨)

ولد فى جنيف وهو ابن لتاجر مجوهرات بروتستانتى ، وقد فقد والدته عقب ولادته مباشرة ، ولم يقو أبوه على تعليمه تعليماً أكاديمياً ، ولذلك أمضى فترة من شبابه هائماً على وجهه لا يعرف له مستقرا ، ولا يدرى أى وجهة يوليها ؟ وفى ذات ليلة رجع إلى المدينة متأخرا ، فوجد أبوابها مغلقة فى وجهه ، فآثر أن يرحل عنها إلى ماشاء الله ... فأخذ يتنقل من مدينة إلى أخرى حتى انتهى به المطاف إلى باريس . وأمضى بها بعض الوقت ، ثم رجع إلى مدينة شامبرى فى سويسرا حيث تعهدته سيدة شابة وأخذت على عاتقها أن تهديه سواء السبيل ، ولكنها فشلت فى تقويمه وتهذيبه ، وانتهى بها الأمر إلى تركه يفعل بنفسه ما يريد ، ثم اشتغل سكرتيرا لسفير من السفراء فى فينسيا ، ولكنه اختلف معه فقفل راجعاً إلى باريس ، وهناك عكف على دراسة الفلسفة والاختلاط بالفلاسفة ، وحاول كذلك تعلم الموسيقى ، ولكن النجاح لم يواته فى هذا الميدان .

كانت فلسفة « التنوير » التى عاصرها روسو تقوم على قطع كل صلة بتفكير العصور الوسطى ، وكانت تهدف إلى تنوير العقل والعلم من ظلمات الماضى وإلى وضع الإنسان فى قلب عالم جديد منظم .

ويعتبر جان جاك روسو أول من دعا إلى البحث عن الوسائل الكفيلة برفع مستوى حياة الناس ، وعن مبدأ الأخوة ، وقد عرض كل آرائه

سواء الفلسفية منها أو السياسية أو الاجتماعية فى كتابه المشهور « العقد الاجتماعى » .

وهو يبدأ كتابه بجملته المشهورة التى تقول :

« إن الإنسان ولد حرًّا ، ولكنه مكبل بالأغلال فى كل مكان . »

وهو يقول : « إذا افترضنا أن القانون الاجتماعى لا يمكنه أن يأتى من الطبيعة فإن بعض الناس قد يملكون سلطة تجاه الآخرين ، وبذلك قد تأتى هذه السلطة عن طريق حق سابق ، أو عن طريق القوة ، أو عن طريق فقدان الحرية التى هى فى الأصل عبودية . والواقع أن أى فرض من هذه الفروض ليس له سند حقيق » .

ونحن لا نعتقد أن السلطة أصبحت ممنوحة لبعض الناس عن طريق الحق ، فالناس سواسية وأحرار بالطبيعة ، ولا يمكن أن يقارن النظام الاجتماعى بالنظام العائلى . وفى الأصل يتشكل المجتمع من عدد كبير من الأسر المختلفة ، ولكن إذا ما أخذنا فى اعتبارنا أن رب الأسرة له سلطة طبيعية على أفراد أسرته فهذا لايعنى بتاتا : لماذا لاتكون مثل هذه السلطة تجاه عديد من الأسر مجتمعة وتكون ممارستها عن طريق رب أحد هذه الأسر ؟

وتبعاً للطبيعة لا يظل الابن مرتبطاً وقتاً طويلا بأبيه ، فهو فى حل من الانفصال عن أبيه عندما يشعر بأنه يمكنه الاعتماد على نفسه وتدبير حياته بنفسه . وعلى العكس فإن الأسرة إنما هى امتداد للإنسانية ، وليس هناك أناس ولدوا ليطيعوا وآخرون ولدوا ليحكموا .

والسلطة التى تأتى عن طريق القوة من وجهة نظر روسو لاتمنح

صاحبها حقا من الحقوق ، وإذا ما اضطر الإنسان إلى أن يخضع لهذه القوة يوما ما ، فليس عليه جناح إذا لم يطعها . وينتهى روسو إلى القول بأن الحق الاجتماعى لا يأتى من الطبيعة ، بل إنه قائم على ارتباط بين أفراد المجتمع .. الواحد تجاه الآخر . وإذن .. فالمجتمع فى نظره يرتكز على عقد أو ميثاق ، أى على ارتباط متبادل متفق عليه بين أفراد هذا المجتمع (1) .

يقترح روسو نظرية جديدة لتنشىء شرعية السلطة السياسية ،فالسيادة المطلقة إنما هى للشعب الذى لا يمكنه أن يتخلى أو ينزل عنها .

وروسو يستند فى ذلك إلى صفة الحق المطلق الذى لا يسقط أبدا عن الفرد منذ ولادته كإنسان . وليست هناك قوة ولا سلطة تعرف تقدير شخصية الإنسان واستقلاله الفطرى ، ومن هنا يعتقد روسو أن الإنسان كان خيِّرا وحرًّا وسعيداً ، ولكن المجتمع هو الذى جعله خبيثاً ، وعبداً ، وبائساً .

ومع ذلك .. فروسو ينقض هذا الرأى من جديد ، ويذكر أنه من الاستحالة أن نرجع إلى الوراء ، بل يجب أن نخضع للمجتمع . إن جميع الناس فى هذا المجتمع يرتبط الواحد منهم بالآخر تمام الارتباط بميثاق ، وهذا الميثاق هو الذى يسوى بين الناس قاطبة فى الحقوق والواجبات ، كما أنه يجب أن يكون هناك عقد بين الشعب وحاكميه الذين اختارهم بمحض إرادته . هذا العقد الذى يدفع الشعب وحاكميه إلى ملاحظة القوانين التى اتفقوا عليها والتى تشكل روابط اتحادهما معاً .

---

(1) المترجم .

فلسفة التاريخ

ج . ب . فيكو J . B. Vico (١٦٦٨ — ١٧٤٤)

مؤرخ وفيلسوف إيطالى ولد فى نابولى . وكتابه «مبادىء علم جديد» هو أحد المؤلفات التى تدل دلالة واضحة على أن « فيكو » من الرواد الأوائل . لفلسفة التاريخ ، وهو يعتبر أن تطور التاريخ يحتوى على ارتداد لدورات من الزمن متشابهة كل التشابه وأنها تتمثل بخط حلزونى . وكل الشعوب من وجهة نظره ملزمة على نمط واحد بأن تمر « بالعصور » التى توالت بعضها وراء البعض الآخر . وهو ضد فلسفة « العقلية » لديكارت ، فهو بدلا من أن يلجأ إلى طريقة التحليل المجردة ، لجأ إلى « المسلمات » الملموسة ، التى تأتى عن طريق الدراسة النقدية للتاريخ ، وعلى الأخص التطور المتوازى للغة وللمنظمات التى يطلق عليها فن دراسة النصوص وتطورها .

وتعتبر فلسفة « فيكو » جديدة فى نوعها وغنية بعناصرها ، وهو يدعو إلى سيكولوجية تهدف إلى التدليل على أن « العناية الإلهية » خلقت عواطف ونزوات للإنسان فى سبيل خير الحضارة . إنه ينادى ببعض الوسائل الاجتماعية على طريقة علم الاجتماع الحديث . فهو عندما يدرس أو يضع أسساً لمشاكل اجتماعية ، يرجع دواما إلى الحالة الاجتماعية التى كانت عليها التنظيمات السياسية أو الاجتماعية فى العصور القديمة . وهو يستغل فى دراسته المؤلفين القدماء ، ولكن لا يأخذ بطرائقهم ولا بشواهدهم بل يعتمد الاعتماد كله على دراسة نصوص تراثهم الأدبى والفكرى .

ويعتبر « فيكو » أول مبشر بظهور أوجست كونت وقانون « ثلاث الحالات » فمن وجهة نظره ، أن كل مجتمع لابد أن يكون قد مر بثلاث مراحل متعاقبة الواحدة بعد الأخرى .

(١) المرحلة الإلهية ، وهى مرحلة الشعراء الدينيين الذين خلقوا الأساطير .

(٢) المرحلة الثانية : مرحلة « الطبيعة الباسلة » التى تغلب عليها الروح الأرستقراطية . وكانت هذه المرحلة عصر أشيل Achille وكثيرين من أشباه الإمبراطور رومولوس Romulus الذين امتلأت بهم الأساطير القديمة وتحدثت عنهم كأبطال ميامين وكأنصاف آلهة .

(٣) المرحلة الثالثة : مرحلة « الطبيعة الإنسانية الذكية » ، وطابع هذه المرحلة طابع المساواة والفكر والعقل والواجب .

ومن وجهة نظر أخرى ، فإن « فيكو » يعد رائداً أول لمؤرخى القرن التاسع عشر . ويقرر ميشيليه Michelet أن أستاذه فى التاريخ ومعلمه هو فيكو ، وهذا ما يؤيد الدور الهام الذى ينسبه فيكو إلى « الرأى العام » . فالرأى العام من وجهة نظره هو الذى يحكم أخلاق المجتمع والقانون ، وهو يقول :

« يمنح الشعب القوانين الروح التى تطيب له ، ويتحتم .. إن طوعاً أو كرهاً .. على السلطات أو القوى الحاكمة أن تلاحظ هذه القوانين فى الروح التى تطيب للشعب والتى تعلق بها » .

ولم يفت فيكو التحدث عن الوجدان الاجتماعى كما تحدث عنه فلاسفة

القرن الثامن عشر والتاسع عشر الفرنسيون من مونتسكيو إلى روسو ، إلى سينسر .

وميشيليه المؤرخ الفرنسى كان هو الآخر مقتنعاً بالقيام بهذا الدور الخلاق للشعب ؛ ولذلك نلمس فى كتاب ميشيليه « تاريخ فرنسا » Histoire de France مدى التجديد فى فلسفة التاريخ ، ففلسفته كانت قائمة على دراسة المنظمات السياسية والآراء وانحيازات الفكر العام ، وكانت دراسة مثل هذه القضايا أكثر أهمية فى نظر ميشيليه من دراسة قوائم أسماء الملوك والوزراء والندماء والمعارك .

ويمكن أن نرى فى فيكو رائداً آخراً من رواد نظرية الطبقات الاجتماعية ، وعلى أية حال ..فإنه يعلن أن أهمية هذه النظرية هى معرفة أن السلوك السياسى للأغلبية العظمى من الأفراد محدود عن طريق موقفها الاجتماعى . وعند فيكو إدراك سليم وواضح للتناقضات التى تعزى إلى اختلاف المهنة والمرتبة ومصادر الثروة فى داخل شعب واحد . وقد لاحظ أن هذه المتناقضات لم تتوقف قط .. لأنها ترتكز على التشكيل الأصلى للمجتمع وللبنيان السياسى لا على الناس ، وكلما ألغيت مجموعة من هذه المتناقضات ظهر جديد منها .

إذن .. ففيكو يقرر شيئين .. هما :

من جهة .. قدرية التطور .

ومن جهة أخرى .. اتجاه متحرر فى ميدان المنظمات السياسية . وله شبه كبير باتجاه الفلاسفة الطبيعيين (الفيزيوقراطيين) فى الميدان الاقتصادى .

ويقول فى هذا المقام :

« بما أن المجتمع من صنع واقع غريزى واضح لالبس فيه ولا غموض فتكون الخلاصة أن الاتجاه الأحسن والأكثر اتزاناً وحكمة هو ذلك الاتجاه الذى يترك للمنظمات السياسية أن تخلق من نفسها أحسن الوسائل الممكنة لتطور هذا الدافع الغريزى دون إجبار أو إكراه . »

مونتسكيو Montesquieu (١٦٨٩ — ١٧٥٥) :

ولد فى قلعة (لابريد) قريباً من مدينة « بوردو » وبعد أن أتم دراسته الثانوية درس القانون ، ثم تقلد منصب مستشار قانونى فى برلمان مدينة بوردو. ثم اعتلى منصب رئيس محكمة وهو فى سن السابعة والعشرين. وفى عام ١٧٢٦ أعفى نفسه من هذه المهمة وآثر الترحال والتنقل من بلد إلى آخر ثلاث سنوات تقريباً زار فيها جزءاً كبيراً من بلاد أوربا وعلى الأخص إنجلترا التى أقام فيها وقتاً طويلا ، ثم قفل راجعاً إلى فرنسا حيث أمضى فيها بقية حياته . بين قريته التى كان يشرف فيها على مزارعه بنفسه متأملا فيها الطبيعة .. وبين المجتمع الباريسى دارساً إياه .

وكتاب مونتسكيو « روح القوانين » L, Esprit des Rois يعتبر من أعظم مؤلفاته فى فلسفة التاريخ . فقد قضى فى إعداده حوالى عشرين سنة . ويجمع هذا المؤلف جوانب كثيرة من السياسة وأنظمة الحكم المختلفة وما تحمل من مساوٍ ومحاسن ، وفيه معالجة صريحة للمجتمع وما يجب أن يكون عليه . فقد رأى أن القوانين تبدو كحقائق ناتجة عن تجربة ، ويضع فى حسابه الجنس والعصر والوسط وكل الشروط التى تحدد « الروح » . وفى الوقت نفسه يستخلص من الحالات الخاصة مبادىء عامة . ويصف التشكيلات العامة للحكومة بصفات خاصة .. فالحكومة

الملكية قائمة على الشرف ، والحكومة الاستبدادية قائمة على الخوف ، والحكومة الجمهورية قائمة على الفضيلة . وهو يدعو إلى فصل السلطات بعضها عن بعض : السلطة التشريعية ، والسلطة التنفيذية ، والسلطة القضائية[1]

ويعتبر مونتسكيو القانون من المداخل البراقة للوصول إلى ميدان العلوم الاجتماعية ، فهو يقول :

« إن القوانين تعبر عن العلاقات الضرورية التى تشتق من طبيعة الأشياء . »

وينطلق مونتسكيو من هذا التعريف محاولا أن يقيم عدداً معيناً من العلاقات الثابتة بين المنظمات السياسية والتشريعية للشعوب وأحوال معيشتهم وخاصة مناخهم . وعلى ذلك فالأخلاق من وجهة نظر مونتسكيو انعكاس للقوى الدافعة المتأثرة بالمناخ ، ولذلك يقول أيضاً :

« إن الديانات فى البلاد الحارة لا تتشدد فى عقاب خطيئة الجسد ، كما أن ديانات البلاد الباردة لا تتشدد فى عقاب الإدمان على الخمور » .

ويرى مونتسكيو أن التنظيمات الاجتماعية قائمة على علاقات ثابتة بين طبيعة الإنسان والبيئة ، وينتج من هذين العنصرين مجتمعين ما نطلق عليه « الروح العامة » أى العقلية والرأى .

وعندما يحاول مونتسكيو التحدث عن نظرية السلطة السياسية يربط الصور الهامة للسلطة السياسية بالمثل الأعلى الاجتماعى السائد ، وهو لا يبعد فى هذا الرأى عن رأى أفلاطون ، وهو يوضح أن أية حكومة فى أية صورة أو شكل يجب عليها أن تتخذ عدداً من المعتقدات دعامة لها ،

---

(١) للمترجم

وأهم هذه المعتقدات هى التى تتضمن مثلا أخلاقياً أعلى ، فالحكومة الملكية مثلها الأعلى الذى يدعمها ويحفظ كيانها هو الإحساس بالشرف ، والحكومة الاستبدادية . . الخوف ، والحكومة الجمهورية . . الفضيلة .

وعندما يضعف هذا المثل الأعلى فى أى شكل من أشكال الحكومات الثلاث فإنها تنهار وتترك مكانها لحكومة أخرى ذات شكل آخر . فإذا تقدم الإحساس بالشرف فى الشكل الأول ، تحولت إلى حكم الأعيان أو إلى حكومة الأثرياء ، وإذا عدم الإحساس بالخوف فى الشكل الثانى ، انهار صاحب الحكم الاستبدادى إلى النهاية وتقوض نظامه من أساسه . وإذا عدم الإحساس بالفضيلة فى الشكل الثالث ، يصبح الجمهوريون حكاما فوضويين ومستبدين .

وتهدف دعوته فى فصل السلطات إلى عدم طغيان الواحدة على الأخرى ، ويرى تطبيق هذا الشىء نفسه فى المجتمع كيما لا تطغى طبقة على طبقة .

الفصل الثالث
العصر الحاضر

المتشائمون

لقد شهدت أواخر القرن الثامن عشر انتصاراً ساحقاً لآراء وأفكار الفلاسفة الطبيعيين وعلماء الاقتصاد المتحررين ؛ فقد ألغيت تماماً أو اختفت نهائياً النظم التعاونية وتحديد أسعار المنتجات والتنظيمات الاقتصادية المحدودة .

وقد صاحب هذه الفكرة نمو فى الثروات وفى الإنتاج لم تعهده الإنسانية من قبل ، ولكن هذه « الديناميكية » فى تضخم الثروات وفى غزارة الإنتاج لم تخل من مساو ومضار ؛ فقد عم البؤس والفقر الطبقة العمالية ، وانتشرت البطالة بين صفوف العمال وانخفضت أجورهم ، وذلك يعزى إلى تحرر المذاهب الاقتصادية وانطلاقها من غير قيد أو شرط مما أدى إلى كثير من المنافسات التى لا عنان لها ولا حدود . وكانت الخطورة فى ميدان المنافسة تظهر بوجه خاص فى محاولة الاستيلاء على الأسواق الخارجية .

وقد استطاع كل من « ريكاردو » Ricardo (١٧٧٢ — ١٨٢٣) ومالتوس (١٧٧٦ — ١٨٣٤) أن يبينا بعض جوانب الاقتصاد الحر ، وقد كانا من الأوائل الذين نددوا بالنزعة التفاؤلية لرجال الاقتصاد الكلاسيكيين . وكان اعتراضهما الأول هو « بخل الطبيعة » فقانون

الغلة المتناقصة فى الميدان الزراعى يبين أن العمل يمكن أن يصبح لا جدوى من ورائه حينما تزداد حدته ، كما أن قانون الدخل الزراعى يبين أن أهم الأرباح هى تلك التى لا يستحقها أصحابها ، أما قانون السكان الذى وضعه « مالتوس » فإنه يبين كيف أن الطبيعة تقاوم ، بطرق عنيفة ، ازدياد معدل الخصب . وعالج « داروين » (١٨٠٩ — ١٨٨٢) موضوع « الاختيار » ونزعة البقاء للأصلح ، وهكذا انتهت الميول التفاؤلية التى سادت المذاهب الفكرية فى القرن الثامن عشر عن هؤلاء الكتاب أمام حروب نابوليون الكثيرة .

هيردر Herder (١٧٤٤ — ١٨٠٣)

الناقد الألمانى والفيلسوف والواعظ والمعلم ، ولد فى « مورونجن » فى بروسيا الشرقية لأبوين فقيرين ، ولكنه لم يقتصر فى الأثر الذى تركه على احداث ثورة فى الأدب الألمانى بكتابه (Sturm und Drang) بل وترك أثراً عميقاً فى التفكير الألمانى الفلسفى والسياسى وتطور القوميات فى أوربا الشرقية . وقد درس اللاهوت والفلسفة فى كينيسبرج من ١٧٦٢ — ١٧٦٤ متكسباً خلال هذه الفترة من التدريس فى كلية فريدريك بهذه المدينة ، وقد استمع فى الجامعة إلى محاضرات أيمانويل كنت ، الذى أخذ عنه شغفه بالجغرافيا والعلوم الإنسانية ، وعقد علاقة صداقة وثيقة مع هامان Haman الذى وجه اهتمامه إلى الشعر والنقد مع تأكيد أهمية العاطفة فى الإنتاج الأدبى وفى تقدير مثل هذا الإنتاج ، وقد وجه هامان اهتمام هيردر إلى المحاولات الأدبية البدائية فى كتاب « العهد القديم » .

وفى أواخر عام ١٧٦٤ ذهب إلى « ريجا » حيث عمل مساعد أستاذ فى مدرسة الكاتدرائية وظل فى المدينة إلى عام ١٧٦٩ حيث أصبح معلماً وواعظاً فى مكانة مرموقة . وكان أول أعماله الكبيرة هو Über die nevere deuts the Literature الذى نشر عام ١٧٦٧ ووضعه فى مركز رفيع بين كبار نقاد الأدب ، بيد أن عدم استقراره دفعه إلى ترك ريجا ، كانت فكرته هى السفر للحصول على الخبرة عن العالم، وعند عودته إلى ريجا ناظرا « لليزيوم » فى ريجا وضع إصلاحات تعليمية هامة جديدة ، وقد سافر هيردر إلى « نانت » حيث أخذ يفكر فى حياته ويضع مشروعات كبيرة بشأن المستقبل فى مجالات التعليم والفلسفة والأدب والدين . واتضح له أن رسالته فى الحياة هى دراسة التاريخ البشرى بكل مظاهره من بداياته الأولى ليتبين الاتجاه الذى لا بد للمجتمع البشرى أن يسير فيه فى المستقبل .

وقد زار باريس وفى أثناء عودته إلى ألمانيا تحطمت السفينة التى كان يستقلها ولكنه نجا من الموت . وقد زار دار مشتاوت حيث التقى بالفتاة التى قدر له أن يتزوجها فيما بعد ، كما ذهب إلى ستراسبورج حيث التقى « بجوته Goethe » وقد تحدث إليه بآرائه الجريئة عن نشأة الشعر وأطلعه على الأدب الشعبى وغير ذلك من شعر شكسبير والعهد القديم . وبعد ذلك أصبح واعظ البلاط فى قصر الكونت «شاد مبرج ليبى» فى بيكبرج ، واستمر فى أبحاثه فى الحركة الأدبية الجديدة وكتب عددا من الأعمال الدينية والفلسفية ، وقد تزوج عام ١٧٧٣ ، وفى عام ١٧٧٦ دعى بتأثير نفوذ « جوته » ليصبح مشرفا وواعظا فى فايمار ، حيث أحيط بالحسد الضغط الذى أثر عليه لحساسيته الشديدة وساءت صحته إلى أن توفى

فى فايمار التى كانت فترة حياته فيها قصة تدعو للأسى . بيد أنه تمتع بصداقة « جوته » الوثيقة بين عامى ١٧٨٣ و ١٧٩٣ وإن كانت حدثت فرقة بينهما فى آخر الأمر ، ولا شك أن كلا منهما قد ترك فى الآخر أثرا كبيراً .

وقد وضع هيردر أعظم أعماله فى أثناء الفترة التى قضاها فى فايمار ومنها Volkslieder (١٧٧٨ — ١٧٧٩) و آيدين «١٧٨٤—١٧٩١» ، التى حاول أن يحقق فيها أحلامه فى أثناء رحلته البحرية ، وقد توفى فى ١١ من ديسمبر عام ١٨٠٣ . وهو مؤلف لكتاب جامع شامل لآرائه السياسية والاجتماعية أطلق عليه اسم « فلسفة تاريخ الإنسانية » Philosophie de l'Histoire de l'Humanité (١)

ويؤيد هيردر فكرة أن لكل شعب نوعاً من الروح تفرض على أفراده طريقة فى التفكير وفى الشعور غير قابلة للمشاركة مع أى شعب آخر .

وبالنسبة للإنسانية ، تكمن قيمة الفرد فى صفاته الشخصية ، ومن وجهة نظر المدرسة « الهيردرية » تعتبر القيمة الفردية جزءا من النمو العضوى للمجتمع . وفى مدينة ستراسبورج بفرنسا عام ١٧٧٠ شرح هيردر للشاب « جوته » أن الشعر الشعبى والملحمة والحق الطبيعى ما هى إلا جوهر لكائنات مجردة لكنها مخلوقات حية يتضح فيها من غير وعى « روح جماعية » ، وتلك هى الروح الشعبية التى عبر عنها هيجل بكلمة Volksgeist فى رسالته للحصول على درجة الدكتوراه فى عام ١٧٩٣ .

---

(١) المترجم

وقد ترجمت هذه الكلمة إلى معنى القومية فى ألمانيا وفى فرنسا . وهم يقارنون القومية بجهاز ضخم يشكله الناس الذين هم أعضاؤه «كأوراق الشجرة» .

ويبدو من هذا التاريخ كيف كان الطابع المشترك لعلوم الاجتماع ذات الاتجاه المتحفظ فى مقارنة المجتمعات والدول بأجسام كائنات حية لا تستطيع أن تتطور وتنمو إلا تلقائيا دون أن يكون للإرادة الواعية دور فيها .

وبذلك تتضح النتائج الاجتماعية لمبادىء هيردر ، فهى تعبر عن « اللجوء » إلى « متاهات » الفلاسفة المدرسيين ، وهى تغلب الشيء الذى يصعب التعبير عنه وتفسيره ، وفلسفة القدماء فيما يختص بالتحليل والوجدان والعقل ، وبالاختصار إلى الرجوع إلى نظريات ومبادىء العصور القديمة التى كانت تؤمن بالقومية والعنصرية .

وقد انغمس هيردر فى دراسة الثقافة القومية الألمانية من بدايتها البربرية ودرس أصل لغتها وحضارتها القديمة إلى تاريخها ونظمها فى العصور الوسطى كما درس فنونها الشعبية التقليدية وآثارها ، وكان هدفه من ذلك خلق صورة جديدة للمجتمع الألمانى تكون مسئولة عن وحدة نموها القومى الخاص بها .

* * *

وقد انعكس رد الفعل هذا فى الميدان الاقتصادى، وكانت وجهة نظر الفلاسفة الطبيعيين والمتحررين ، إلغاء كل المضايقات الاقتصادية والمهنية التى كانت تثقل كاهل الناس منذ القرون الوسطى ، مثل نظام الاتحادات والعبودية والعمل الإجبارى أو الإلزامى . وفى ميدان التبادل التجارى

كانوا يهاجمون تدخل الحكومة فى توجيه الاقتصاديات فكانوا يؤيدون التبادل الحر للسلع والنقود .

وكان أول صوت ارتفع ضد وجهات النظر هذه صوت (فشته) Fichte (١٧٦٢ – ١٨١٤) وهو معروف كفيلسوف أكثر منه شيئا آخر، وفى كتابه الذى أطلق عليه « الدولة التجارية المقفلة L'Etat Commercial Fermé يتحدث عن النظرية الكاملة للاكتفاء الذاتى بمعنى أنه يجب على أى شعب أن يكفى نفسه بنفسه ، وأن يستهلك منتجاته الخاصة به ، وأن يتجنب الصادرات ، كما أن عليه إزاء ذلك تجنب الواردات سواء بسواء . معللا ذلك بأن السياح عامل إفساد لآداب الشعب وأخلاقه ، وأنهم يشكلون منظراً من مناظر الكسل .

ومن وجهة أخرى فإن التركيب الاجتماعى لأوربا الموروث عن القرون الوسطى كان قائما فيما يختص بالتسلسل على مبادىء معقدة وغالبا متضادة متنافرة . وهذا النظام أثر من آثار أنظمة الطوائف فى العصور الرومانية ، ويضاف إلى ذلك انقسام المجتمع إلى ثلاث طبقات: طبقة النبلاء ، وطبقة رجال الدين ، وطبقة أفراد الشعب المتخلفة .

وقد أثارت الحملات العنيفة ضد الامتيازات التى كان يتمتع بها النبلاء موجة من الدفاع المضاد فى مخططات هذه المذاهب الاجتماعية : ففى فرنسا كانت حجة المدافعين عن امتيازات طبقة النبلاء تنحصر فى أن هذه الامتيازات ناتجة عن حق غزو مارسه أبناء هؤلاء الغزاة الشرعيين تجاه هؤلاء الذين غلبوا على أمرهم . والغريب فى الأمر أن كثيراً من الكتاب والفلاسفة قاموا بالدعوة لهذه الآراء فى مؤلفاتهم ، ونخص بالذكر الدبلوماسى والكاتب الفرنسى جوبينو Gobineau (١٨١٦ – ١٨٨٢)

فى كتابه المشهور Essai sur l'gnégalité des Raccs Humaines
ويعد جوبينو من أكبر غلاة نظرية الأجناس وعدم مساواتها فى الكفايات إلى المبالغة فى القول بأن هناك دماً زنجياً يجرى فى عروق جميع أفراد الطبقة الفقيرة فى فرنسا . وقد تحمس الألمان إلى حد كبير لآراء جوبينو وذهبوا بها مذاهب بعيدة من القوميـــة المتعصبة إلى نظرية الأجناس التى اعتنقها النازيون أيام حكمهم وأدخلوا فى روع الشعب أنهم أسمى الأجناس .

ومن جهة أخرى كانت هناك فلسفة أخرى فى القرن الثامن عشر تدعو إلى الأخذ بآراء الفلاسفة اليعقوبيين الذين كانوا دعاة للفلسفة التفاؤلية فى هذا العصر ، والذين كان يعرف عنهم تحمسهم الجنونى لنظام الديموقراطية ووجوب تطبيقه فى المجتمع . وكان محتوى هذه الفلسفة التفاؤل المتحرر وإيمان روسو بفضائل الشعب التى هى المصدر الوحيد للسلطة الشرعية . يضاف إلى هذه الآراء الرأى القائل بأن الملوك كان من مصلحتهم الفصل بين الشعوب وعدم جواز اختلاط بعضها ببعض .

ولكن الغزوات النابليونية جرحت الشعور بالقومية وأدمته باحتلالها العسكرى المستمر للبلدان وبسلبها لأموال الشعوب المغزوة ، وبمصادرة مافيها من منتجات وسلع ... إلخ ، وهكذا أسبغت هالة على أفكار هيردر الألمانى التى انحدرت إلى عالم الأدب .

وقد اعتنق الفلاسفة الرومانتيكيون آراء أخرى مضادة لآراء القرن الثامن عشر . إن « القومية » التى ظهرت فى بداية القرن التاسع عشر كانت صورة لرد فعل عام شعبي ضد النزعة الدولية لسيادة الطبقات الحاكمة فى القرن الثامن عشر وضد الإنسانية نفسها .

جوزيف دى ميستر Joseph de Maistre (١٧٢٣ — ١٨٢١)

ولد فى شمبرى Chambéry وبعد أن أتم دراسته العليا اشتغل بالقضاء كأبيه من قبل ، ثم هاجر إلى لوزان وأخذ يتنقل فى بعض بلاد ايطاليا . وأخيراً استقر به المقام فى سردينيا . وشغل فيها وظيفة مهمة ثم أرسلته حكومة سردينيا سفيراً لها فى روسيا . ولكن حكومة ذلك الوقت لم يعجبها منه دفاعه عن الجزويت عند طردها إياهم ، فطلبت منه العودة إلى بلاده التى يمثلها .[1]

وهو يعتبر من ألمع الكتاب السياسيين ، فقد كتب فى بعض مؤلفاته مدافعا عن الآراء السياسية القديمة ووجوب عدم التخلى عن ممارستها وهاجم مدرسة روسو وجميع الآراء التى انبثقت عنها . وانتقد الاتجاه الثورى الذى يدعو إلى نبذ التنظيمات القديمة .

وجوزيف دى ميستر يعطى الطريقة التجريبية فى دراسة المجتمعات قيمة كبيرة ، وبدعوته إلى هذه الطريقة يأخذ جانب المعارضة ضد الطريقة العقلية ، ويضيف إلى ذلك أنه « يتحتم حل جميع المشكلات التى تتعلق بطبيعة المجتمعات عن طريق التاريخ » .

أما فيما يختص بالسلطة العليا فى الدولة ، فإنه تبعاً لمفهوم التجربة التاريخية على حد قول جوزيف دى ميستر ، لا يوجد لها أصل خارق لطبيعة الأشياء ، بل إنها جزء من « البنيان الفطرى للمجتمعات » وقد اعتبر جوزيف دى ميستر المثل الوحيد للقضية « الشرعية » فى عصر كانت فيه هذه الكلمة لا تدل إلا على الأسر الحاكمة التقليدية . (الأسر المالكة) ولكنه لم يدرك أن أى مذهب سياسى ينصهر فى النهاية فى نظرية « شرعية السلطة » .

---

(١) للمترجم

ومع ذلك فإن أفكار جوزيف دى ميستر فى السياسة والمجتمع أفكار معقدة وينحاز فى بعض النقاط إلى آراء الفلاسفة المتحررين ، فهو مثلهم تماما فى الدعوة إلى النشاط التلقائى الذى عن طريقه تتضح وتظهر الرغبات العظيمة والأهداف العليا للأفراد فى المجتمع . وكان يعارض بشدة الحملات الشديدة واللعنات القاسية التى كانت توجه إلى تقدم الحضارة وتطور الفنون والاختراعات من قبل مدرسة روسو التى كانت تنادى بأن الإنسان فى الأصل « خيّر وسعيد » ولكن تقدم العلوم والفنون أفسده إلى حد ما وأفقده كثيراً من سعادته البدائية . والواقع يناقض رأى مدرسة روسو حيث أن التقدم لا يباعد بتاتا بين الإنسان والطبيعة لأن الفن هو « طبيعة الإنسان » وهو يدعم رأيه بحجة أخرى حيث يقول :

« إذا خالف النشاط الإنسانى قوانين الطبيعة ، فقد نسى أنضاج بيضه » وقد نلمس فى آرائه فكرة التوازن ، فهو يعتقد أن هناك قوانين تسوس توازن المجتمعات وهذه القوانين لها من المرونة الكافية التى تؤدى إلى إذابة هذه المجتمعات بعضها فى البعض الآخر مع حسن إدارة القائمين عليها وتحررهم .

سان — سيمون Saint—Simon (١٧٦٠ — ١٨٢٥)

فيلسوف فرنسى ولد فى باريس ، وعندما أتم دراسته التحق بالجيش ثم تطوع فى صفوف المحاربين من أجل استقلال أمريكا ، وهناك أتيحت له الفرصة لدراسة التنظيم السياسى للولايات المتحدة ومن ثم اتجه إلى دراسة القضايا الاجتماعية . وعند عودته عين ضابطا برتبة « كولونيل » فى الجيش الفرنسى ولما يبلغ الثالثة والعشرين من عمره . وفى عام ١٧٨٥

ترك الخدمة وآثر السفر إلى مختلف البلاد للدراسة .[1]

وهو من عائلة أرستقراطية ترجع أصولها مباشرة إلى شرلمان .

وقد اغتبط سان سيمون كثيرا بنجاح الثورة الفرنسية وكان يعتبرها مقدمة لعدة ثورات أخرى لا بد أن تتناول الميادين الاقتصادية والاجتماعية في المستقبل ، وبذلك نراه عاصر عهد ما قبل الثورة وما بعد الثورة ، أي أنه عاش فترة انتقال جمعت بين عهدين متناقضين كل التناقض ، ومتنافرين كل التنافر .

وكان كل تفكير سان سيمو منصباً على تحسين مصير الإنسانية ومصير الطبقات الفقيرة عن طريق العلم والصناعة . وفي هذه المناسبة يقول :

« إن المجتمع الإنساني هو الآن في طريق الانتقال ، بل هو يجب أن ينتقل من نظام الحكومة القائمة على حكم الإنسان إلى نظام التسلط على غيره كالمرافق وشئون المجتمع » .

وهو يعني بذلك أن نظام الحكومة المعروف قبل الثورة كان نظاما قائماً على استغلال طبقة لطبقة أخرى ، وعلى تسلط فريق من الناس على الفريق الآخر : فالطبقة الأولى أو الفريق الأول هم الإقطاعيون أو النبلاء ، والفريق الآخر هم الرعايا .

وهو يفترض أنه إذا حدث في ليلة من الليالي أن وباء من الأوبئة المخيفة قضى دفعة واحدة على حياة طبقة الأمراء والنبلاء والوزراء والقضاة ورؤساء الجيش ، فلاشك أن الشعب الفرنسي سيبكي وسيتأثر كل التأثر لموت هؤلاء جميعاً ، لأنه شعب عاطفي ، ولكن النتيجة أنه ان يحدث انهيار للشعب وفقدان لكيانه كمجتمع من زوال هؤلاء . وإذا حدث العكس

---

(١) للمترجم

وقضى الوباء فجأة على حياة العلماء والصناع فلاشك أنه ستتخلف عن هذا كارثة وخسارة كبيرة للمجتمع ،لأن هؤلاء لا يمكن تعويضهم . وهو يريد أن يخرج من هذا الافتراض بأن بنيان المجتمع قد تغير ، وأنه يجب أن يقوم البنيان الجديد على الصانع والعالم .

وطالما أن سان سيمون هدفه الأول والأخير رفاهية المجتمع الإنسانى ورفع مستواه فهو يعتبر أن من المشاكل الأساسية فى المجتمع عدم تنظيم الإنتاج الاقتصادى . لذلك يدعو إلى أن يكون الإنتاج الاقتصادى فى مصلحة الجميع ، وهو يرى أنه كيما ننهض بالتقدم ، يجب إلغاء أو تحديد حق الإرث ، و « نمنح كل فرد فى المجتمع على حسب طاقته ، ولكل طاقة على حسب إنتاجها . »

ويدعو سان سيمون جميع المنتجين الزراعيين والتجار والمتعهدين أن يقيموا فيما بينهم جميعه إنتاج ، كما يدعو فئات الصناع أن تأتمر بأمر رؤساء مصانعها دون مناقشة تلافياً لتعويق الإنتاج . ويتحتم أن يمارس هؤلاء «السلطة السياسية » أما العلماء فيمارسون « السلطة الروحية » لكى يهذبوا جمهرة الشعب خلقياً وعلمياً ، وبذلك يستطيع المجتمع أن يرث كل هذه الثروات الناتجة عن هذا النظام .

ومن هنا يعتبر سان سيمون من المنشئين الحقيقيين للاشتراكية التى تأخذ بهذا الشكل « التحكمى » ، فهو يدعو إلى مجتمع تحكمه أرستقراطية من الفنيين والممولين والصناع ، أى أنه يعتبر أول من دعا إلى إقامة مجتمع من « الفنيين » Technocrates وأول من أعلن عن الدور العام الذى يؤديه « الإداريون » فى إدارة المصانع ومدى تأثيرهم على الإنتاج .

وكان لسان سيمون تلاميذ كثيرون ساروا على هديه ، واقتفوا أثره واتخذوا من فلسفة آرائه مثلا عاليا لهم ، فكونوا جمعية دينية تضمهم جميعاً ولكنها حلت بعد وقت غير قليل بأمر من البوليس ، وانصرف بعض أتباع سان سيمون إلى مزاولة النشاط الاقتصادى فكان الأب (انفانتان) Enfantin من الرواد الأوائل الذين عملوا على إدخال السكك الحديدية فى فرنسا . كما كان « بيرير Pereire » أول من أنشأ بنكا تجارياً وأقام أول شركة للملاحة عبر الأطلسى .

فوريبه Fourier (١٧٧٢ — ١٨٢٧)

فيلسوف فرنسى ولد فى بيزانسون ، وهو ابن لتاجر أصواف ، ولم يتمكن من مواصلة دراسته الجامعية فالتحق ككاتب فى متجر ، واستمر يعمل فى هذه الوظيفة متنقلا من متجر إلى آخر حتى بلغ سن الستين ، ونرى أن هذه الوظيفة التى شغلها طيلة حياته، مكنته من الاختلاط بكثير من الناس على اختلاف مراتبهم ودرجاتهم ونوع سلوكهم فى الحياة . وقد زود نفسه بجانب ذلك بكثير من القراءات فى كتب التاريخ والفلسفة لمن سبقوه .

ويمكن اعتبار فوريبه من رجال علم النفس الاجتماعيين ، وكان طابع سيكولوجيته قائما على تحليل العواطف الانسانية ، وهو فى هذا المقام . لايعدو كونه يوضح لنا ويحلل العواطف التى تثير الإنسان وهو يحاول أن ينشىء علاقة متبادلة بين أحساسات البشر والتنظيمات الاجتماعية .

ويؤكد فوريبه أن سعادة الجنس البشرى تنشأ تلقائياً عن المنظمات الجديدة السايسية التى توقفت عن منع الطبيعة البشرية من الانطلاق على

سجيتها ، وعن الحيلولة بينها وبين ظهورها على حسب فطرتها ، ولا يتحتم أن تكون الثورة مقصورة فقط على الميادين السياسية والاقتصادية ، بل يجب أن تتناول كذلك الميادين الاجتماعية . ويعنى بهذا عملية تحويل وتغيير القيم . وهو يقترح على منوال أفلاطون نموذجاً من البيان الاجتماعي الذى يبدو له أنه فى إمكانه تحقيق توازن على درجة من الكمال ، وحيث تزدهر فيه وتنمو الطبيعة الإنسانية بكل طاقاتها الحيوية .

يقول فوريه : إن التصنيع لا يخلق إلا زيادة فى عدد الفقراء ، وإن التجارة تلقى ظلالا من الاضطراب والفوضى على الميكانيكية الصناعية ، فهو يقترح إلغاء العمل الصناعى ، وإحلال العمل الحر محله ، وينصح بإنشاء جمعية تعاونية إنتاجية Phalanastère حيث يلتقى فيها الإنسان بملامح القرية والقبيلة البدائية ، وحياة القصور والصناعة . وفى هذه الجمعية يتاح لعدد من الناس أن يعيشوا معاً فى إطار مناسب ويتحتم ، على جمعية « الفلاناستير » (مذهب فوريه) أن تكفى نفسها بنفسها وأن تنتج كل ما هو ضرورى من مختلف الحاجات لأعضائها ، وبذلك يختفى العمل بالأجر طالما أن كل عضو فى هذه الجمعية سيصبح منتجاً ومستهلكاً فى وقت واحد معاً ، وبذلك يعم السلام جميع الناس قاطبة .

ويعتبر فوريه من بعض جوانبه رائداً من رواد طريقة التحليل النفسى ، وبذلك كانت له بعض الآراء عن كيفية تنظيم العمل فى المجتمع ، وهو يركز على الحقيقة القائلة بأن الإنسان عنصر متعدد القيم ، فهو موهوب بالاستعدادات والميول المختلفة فى جميع الميادين ، وعلى ذلك يتحتم علينا والحالة هذه ألا ندعه يقوم بأعمال « روتينية » تخلف فيه كثيراً من الملل وتدفعه إلى الثورة ، بل يتحتم أن نحوّل العمل إلى نوع

من الرياضة كيما يكون أكثر جاذبية . ويبين أن تقسيم العمل الذى لا حدود له ، له نتائج مختلفة ، فقد يكون عاملا فى تبلد الإنسانية أو بلاهتها، وقد يكون العكس . وعلى ذلك ينبغى أن ينظم العمل بواسطة مجموعات يتقارب أعضاؤها من الناحية السيكولوجية . والهدف من هذا التنظيم هو جعل العمل أكثر جاذبية وعاملا من عوامل القضاء على المصادمات والخصومات فى المجتمع ، وإذا سادت روح التفاهم المجتمع ، وأصبح سلطانه قوياً ، فإن ذلك قد يتيح توازناً قائماً على مبدأ « كل يكمل الآخر » .

وينقد فوريبه كل الطرائق التربوية القائمة على الإكراه والإلزام ، فهو كروسو يحترم بشدة التربية القائمة على التلقائية والميول الفطرية ، وهو أول من دعا المربين إلى الأخذ بطريقة « الكشف المدرسى » فى التعليم .

وهو يؤمن بالعناية الإلهية ويرى أن جميع الاتجاهات التى وضعها الله فينا كلها طيبة وخيرة على شرط أن نعرف كيف نأخذ جانب الخير والطيبة دائماً .

وكان فوريبه أول المشتغلين بدراسة قضايا المرأة وأثر هذه القضايا على المجتمع ، فهو قد سبق أوجست كونت Auguste Comte فى هذا الميدان بتأكيده أن تقدم المجتمع الإنسانى وازدهاره لن يأتى إلا عن طريق ثورة جذرية فى التقاليد القديمة للمرأة وفى القيود التى تعوقها عن الانطلاق فى المشاركة فى بناء المجتمع الإنسانى على أسس متينة ثابتة .

برودون Proudhon (١٨٠٩ — ١٨٦٥)

ولد لأبوين فقيرين ، وتلقن دروسه الأولى فى ظروف قاسية ، وفى سن العشرين ساقته الظروف للعمل فى مطبعة تعلم فى أثناء وجوده بها علم اللاهوت حتى صار عالماً لاهوتياً ، وتعلم كذلك العبرية والنحو المقارن وقام بجولات فى ربوع فرنسا أكثر من مرة ذاق فيها مرارة الحرمان والبطالة .

وفى عام ١٨٣٨ أخذ يعد مؤلفاته التى قبلت فى الأكاديمية الفرنسية ، وأخذ على نفسه عهداً أن يحسن من حال أولئك الذين كان يسميهم « إخوته » وقصد بذلك العمال ، كذلك عنى بدراسة الاقتصاد السياسى الذى كان حجر الزاوية فى تفكيره مستقبلا .

وفى عام ١٨٤٠ كان يفكر فى تأليف مؤلف ضخم عن مشكلات الملكية التى كانت فى نظره « سرقة » ولولا تدخل وزير العدل فى الأمر لاسترسل فى الكتابة حول هذا الموضوع . وقد صودرت فعلا كتاباته ولولا دفاعه عن نفسه هذا الدفاع الذى كان قائماً على الجدل والأفكار المجردة والذى صعب على القضاة فهمه .. ما حكم القضاء ببراءته[1] .

وفى ١٤ من فبراير عام ١٩٤٨ أعلن عن أفكاره الاجتماعية والسياسية وقد دعا إلى وجوب عدم تكديس رأس المال الذى يؤدى إلى زيادة الفوارق فى الثروة وإلى تحطيم النزعة التى وجدت بين القوة السياسية

---

(١) للمترجم

والسيطرة الاقتصادية ، وهاتان النزعتان كفيلتان من وجهة نظر برودون بالقضاء التام على العدالة الاجتماعية والإخاء الإنسانى . وتبعاً لهذا تصبح الدولة فى نظره وسيلة لتغليب طبقة على طبقة أخرى ، أى تحكم أقلية من الأثرياء فى الأغلبية من عامة الشعب الفقراء، ويؤدى هذا النظام إلى حرمان الفرد فى المجتمع من حقـــه الطبيعى فى الملكية ، وهى صورة من السرقة المشروعة وهو يقول :

« الملكية هى السرقة بعينها »

وفى فترة من فترات حياته، اتجه اتجاهاً آخر فى مفهوم الملكية ،وذلك أنه يتحتم أن يكون لكل فرد أقل قدر ممكن من الممتلكات، لكى يتيح له الاحتفاظ باستقلاله الشخصى وكرامته الأخلاقية والاجتماعية . ويدعو إلى إلغاء الصراع الاقتصادى الذى لاضابط له بين الأفراد والجماعات والنظم الاجتماعية التى تؤدى إلى سيطرة هؤلاء الاقطاعيين على جمهرة الشعب .

ويرى برودون أن إحلال نظام تعاونى تبادلى محل المنافسة الاقتصادية التى لا ضابط لها أحسن الوسائل لتنظيم المجتمع، لأن هذا النظام من طابعه أن يزيد من عـدد الكفايات وأن يجعل أفراد المجتمع أحسن أخلاقا وأكبر تقدما بما يكشف لهم عن الهدف الحقيقى للحياة المشتركة . ويرى أن هذا النظام يؤدى إلى القضاء على الفقر الاجتماعى والتعطل .

ويدخل برودون بدوره فى زمرة المتفائلين ، ولكنه يختلف تماما عن « فورييه » . فبينما نجد هذا الأخير يهاجم الأسس الأخلاقية للمجتمع نجد برودون يبـدى احتراما بالغاً للفضائل « البورجوازية » أى للزواج

والأسرة التي تحكمها سلطة الأب . وهو يبق دينياً فى جوهره ويدافع مثل « دى ميستر » عن الحروب ، لأنها فى نظره تؤدى دوراً هاماً فى تنمية بعض الفضائل الصالحة .

ويمكن أن نضع برودون فى مصاف أعداء الثورة . فهو يندد بتركيز السلطات ويفضل نظام اللامركزية الذى يعتمد على وحدات صغيرة تتمتع كل منها بحرية إدارية واسعة وتباشر على أعضائها سلطة أخلاقية حاسمة . وهو يهاجم مبدأ « الجنسيات » الذى شنت باسمه جميع حروب القرن التاسع عشر ، وتكهن بأن تكوين الإمبراطوريات الكبرى الذى تهدف إليه السياسة الأوربية لن يحقق السلام ، بل على العكس سيكون سببا فى سلسلة من الحروب والمنازعات .

ويرى برودون كذلك أن قانون تقسيم العمل يضع العمال فى علاقة ترابط طبيعى بوصفهم شركاء متعاونين فى المسئولية ، وهذا من شأنه أن يخفى فيما بينهم المنافسة ، وأجرة العمال ليست فى الواقع إلا تبادل خدماتهم ، ومساواة وظائف الشركاء تفضى إلى تعادل الطبقات وخصوصا أنها تسمح للشواذ جسمانيا وعقلياً وخلقياً بالعمل . وأن تنظيم العمل وصف وتحديد وظائف ثم تقسيمها على حسب نظم وأجناس وأنواع ، وطالما أن قانون التسلسل هو معيار القدرات وبتعبير آخر مادامت الوظائف الاجتماعية متساوية فيما بينها ـ فان انتاجها يستطيع أن يقيم الأفراد . ولتحديد الأجر يكفى أن نوضح متوسط الوقت الضرورى لإنجاز كل إنتاج .

ولكن كارل ماركس عند دراسته لنظرية برودون الاقتصادية ، أعلن أنها تقوم على مفهوم خاطئ « لآلية التبادل » وأخذ يفند آراءه

الواحد بعد الآخر وانتهى بأن حكم عليه بأنه فيلسوف سطحى ومصلح اجتماعى غبى ، وانه لم يتعمق التعمق الكافى فى دراسة تنظيم المجتمعات على مبادىء إذابة الفوارق بين الطبقات . ومع ذلك ورغم الهجمات القاسية التى صبها عليه كارل ماركس ، فإنه يمثل أول محاولة لجمع آرائه السياسية والاجتماعية فى مذهب موحد يمكن تطبيقه على كثير من النواحى فى المجتمع الإنسانى .

* * *

الباب الثاني

مولد

علم الاجتماع الحديث

الفصل الأول
النظم الاجتماعية

أوجست كونت Auguste Comte (١٧٩٨ — ١٨٥٧)

فيلسوف فرنسي ولد فى مدينة مونبليه Montpellier وبعد أن أتم دراسته الجامعية ، شغل وظيفة معيد فى مدرسة الهندسة ، ثم عين بعد ذلك سكرتيراً ، وأخيراً تعاون مع الفيلسوف سان سيمون فى اخراج أبحاثه ومؤلفاته إلى حيز الوجود . ويعد من أوائل المؤسسين لعلم الاجتماع الحديث . وفلسفته فى الحياة وفى المجتمع متأثرة بأفكار من سبقوه من فلاسفة القرن الثامن عشر بصفة خاصة وبالتهكم اللاذع لفولتير ضد الميتافيزيقية .

ومن وجهة أخرى شعر أوجست كونت بمدى الاضطراب العام وقلق النفوس الذى ساد بداية عصره ، وبرغم اضطراب الأفكار وذبذبة المذاهب الاقتصادية والاجتماعية فان العلوم والاكتشافات التى بدأت فى النصف الأخير من القرن الثامن عشر واصلت تقدمها وتطورها ، وقامت بغزوات جديدة فى التفكير الإنسانى . وقدمت الوسائل الممكنة والطرائق المختلفة للوصول بالإنسانية إلى المكان اللائق بها . وبذلك اختفت تقريبا الفوضى الفكرية والأزمات النفسية فى منتصف القرن التاسع عشر . ومن هنا نشأت فلسفة أوجست كونت وهدفها إعادة تنظيم المجتمع .

وكان مرجع ذلك حاجة الناس الملحة إلى هـذا التنظيم تجاه التقدم العظيم الذى أحرزته الإنسانية فى العلوم .

ولقد تصور أوجست كونت علم الاجتماع على غير ما تصوره الدين والتأملات الفلسفية التى كانت من وجهة نظره ما هى إلا آراء يناقض بعضها البعض ، وآراء خداعة مغشوشة ، وإذا كان ديكارت قضى على جميع الروابط التى كانت تربط الفلسفة والدين ، فان أوجست كونت أقام سداً منيعاً بين الاجتماع والميتافيزيقيا . ومنذ عهده أصبح الطابع المميز لعلم الاجتماع عدم استخدام الميتافيزيقا . وإن كان هـــذا لا يمنع أنه قد حدثت محاولات أكثر من مرة من جانب الميتافيزيقيا والدين لتتدخل فى إصلاح مبادئ التنظيم الاجتماعى .

ويقوم مذهب أوجست كونت على قائمة من المعارف الإنسانية ونظرية عامة للعلوم . وعدد هذه المعارف الإنسانية من وجهة نظره ست معارف : رياضة وفلك وطبيعة وكيمياء وعلم الأحياء . ويتوج كل هذه العلوم علم جديد أطلق عليه علم الاجتماع . وهو علم يقوم على دراسة المجتمعات من الناحية الموضوعية والطبيعية . وهذا الترتيب كما يقول كونت ليس من وجهة نظر عقلية فقط ، بل هو يساير كذلك تاريخ تطور العلوم .

وعلم الاجتماع كما يبسطه كونت له هدف واضح لا لبس فيـــه ولا غموض وهو دراسة الكائن الاجتماعى من جميع نواحيه ، فهو يقول : ان المجتمع يتـكون من الأفراد الأحياء الذين يعيشون فى فكرة من أتوا من بعدهم . وأن المجتمع مكوّن من حصيلة «تجربة» ومن مجموعة «معارف» ومن محتوى هذه المجموعات من المعارف الفكرية والروحية الموضوعية

للمجتمع وتربط هذه الفكرة الأجيال الواحد بالآخر . ومهما يكن فان المجتمع الحى هو الذى يتشكل من الأفراد القابلين للتغير والتطور ، لأن المجتمع فى طبيعته سريع القابلية للتكيف مع الظواهر الخارجية بأشكالها المتنوعة ، وليس هناك كائن آخر فى مقدوره أن يحقق مثل هذا التقدم السريع المستمر بفضل تعاقب الأجيال .. غير الكائن الاجتماعى الذى يسود الزمن .

أما من جهة الطريقة التى يتحتم على علم الاجتماع استخدامها فيجب أن تكون قائمة على الملاحظة والاستدلال . وكان هذا الاتجاه مرتبطاً عند أوجست كونت بنظرية عامة للتطور الفلسفى. وتقرر هذه النظرية المعروفة تحت اسم « قانون ثلاث الحالات » أن الأفراد مروا عبر جهودهم المبذولة دائماً من الفهم والتفسير للعالم الذى يحيط بهم بثلاثة اتجاهات متعاقبة :

(١) الحالة الدينية : تقوم هذه الحالة على تفسير مختلف الظواهر عن طريق أسباب أولية مشخصة فى آلهة . ففى المنظمات الاجتماعية التى كانت بهذه العقلية ، كان الاستعلاء الطبقى للجماعات الكنسية .

(٢) الحالة الميتافيزيقية : حاول الأفراد أن ينتقلوا إلى مفاهيم أقل من المفاهيم الأولى والأسباب التى هى أكثر عمومية (وحدات ميتافيزيقة) حلت محل الأسباب الأولية . وفى حياة الدول ، نجد أن العقيدة أكثر استعلاء عن الحقائق التى يتحتم عليها أن تنطوى تحت مبادىء واضحة ؛ مثل فكرة الحرية المطلقة ، وفكرة الفضيلة « المتكاملة » إلخ

(٣) الحالة الوضعية : تحتوى هذه الحالة على تفسير الظواهر عن طريق الأسباب الثانية باعتمادها على الملاحظة العلمية .

ويتحتم أن يكون الطابع الوحيد المميز للفلسفة الوضعية هو المطابقة على الحقائق ، ويتحتم كذلك أن تكون هذه الفلسفة بعيدة كل البعد عن المذهبين التجريبي والتصوفي ويلزمها أن تبحث عن قوانين الظواهر ، أعنى العلاقات الدائمة التى بين الظواهر الموضوعية تحت الملاحظة ، ويجب أن تتم ملاحظة الظواهر بالتشابه فى وقت واحد أو بالتعاقب ، ثم نربط هذه الظواهر إما بالتشابه أو بالتسلسل ، ويجب ألا نضع فى اعتبارنا البحث عن الأسباب المطلقة ، ولا الطبيعة الجوهرية للأشياء ، فخلاصة الفلسفة الوصفية هى أن نضع الشىء النسبى مكان الشىء المطلق .

ويرى كونت أن علم النفس يجب أن يتوقف عن الظهور كعلم ، ويجب أن يتقاسمه علم الأحياء وعلم الاجتماع ، لأن الإنسان المنعزل كما يقول أوجست .. إنما وهو « تجريد سدرسى » والجنس هو الحقيقة .

وكما تدرس القوى فى الطبيعة والكيمياء أولا بطريقة التعادل «وثانيا» بطريقة الحركة .. فيجب أن يقوم علم الاجتماع على شيئين هامين :

(١) التعادلية التى تقوم على دراسة الشروط الثابتة لوجود المجتمعات .

(٢) الديناميكية التى تقوم على دراسة قوانين تطور المجتمع .

ويتجه أوجست كونت اتجاه أساتذته وخاصة سان سيمون فى أن تطور الانسانية أدى بالمجتمع إلى التقدم وهو يقول :

إن الفائدة العملية لعلم الاجتماع هى اكتشاف شروط التنظيم الاجتماعى من ناحية التعادل الاجتماعى ، ومن ناحية الديناميكية اكتشاف قوانين التقدم ، والنظام يؤدى دائما إلى التقدم ، والتقدم والنظام هما شعار السياسة الوضعية .

ومن وجهة نظر كونت ، فان الحب الجامع الذى ينتج عن تعاطف متزايد مستمر ، والذى يدفع الانسان إلى حب أخيه الانسان ، هو دعامة البنيان الاجتماعى كله ، وعلى هذه الدعامة ينمو المجتمع ويتطور ويسوده الإخاء وترفرف عليه الرفاهية والسعادة . وستكون الانسانية ، هدف هذا الحب بلا نزاع .

ومع ذلك يرى أوجست كونت أن الكائن الاجتماعى يجب أن يندمج فى شخصية متسلطة تسلطاً مباشرا . ويجب أن نستشعر بالسلطة العليا المركزية فى كل ميادين الحياة الاجتماعية . وبذلك يعد من أنصار الذين ينادون بالحد من حرية التفكير، ولذلك كان يمقت أشد المقت الاضطرابات والقلاقل التى حدثت نتيجة الثورة سنة ١٨٤٨ ، ومن أجل هذا فرح وهلل عندما قبض نابليون الثالث على زمام السلطة بيد من حديد وقال : « إن حرية الضمير لا توجد فى الرياضيات » .

وفى نهاية حياته كتب بكل عناية عن وظيفة المجتمع الموجه فهو يرى : إقامة نوع من الدين مع حب « الإنسانية » التى تعتبر كأنها « الكائن الأعلى » . وهو يحاول أن يجمع فى هذا الدين كل العبادات الموجودة باختيار مؤسسيها ، ورجالها العظام ، وعلى ذلك يتكوّن المجتمع من هيئة كنسية ومن سلطة عالية دينية وعلمية وسياسية ، ويتحتم على هؤلاء جميعاً أن يعملوا من أجل مصير الإنسانية .

وبرغم ما فى منهج أوجست كونت من مبادىء ونظريات تميل إلى الفوضى وعدم الوضوح ، فإنه يصف طابع المجتمع المثالى من وجهة نظره بأنه المجتمع القائم « على الحب كمبدأ عام ؛ وعلى النظام كقاعدة . وعلى التقدم كهدف . »

ستيوارت ميل Stuart Mill (١٨٠٦ — ١٨٧٣) :

الفيلسوف والاقتصادى البريطانى ، ولد فى ٢٠ من مايو عام ١٨٠٦ ، وتلقى كل تعليمه على يد والده ؛ وقد بدأ وهو فى سن الثامنة بدراسه الفلسفة والجبر وغيرهما من العلوم ، وبدأ فى تعليم الأطفال فى أسرته ، وكان يقرأ الاقتصاد ويدرسه فى سن الثالثة عشرة ، وبالرغم من أن طفولته كانت سعيدة فإنه قاسى من عدم التطور الطبيعى الذى يحدث دون ضغط أو قسر .

وذهب إلى فرنسا فى مايو عام ١٨٢٠ وظل بها إلى يوليو عام ١٨٢١ حيث كان يقرأ ، ويدرس الكيمياء وعلم النبات والمسائل الرياضية العليا ، ويدرس الناس والعادات . وفى سن السابعة عشرة عمل بمكتب الاختبار فى « انديا هاوس » (دار الهند) وأصبح مساعداً فى عام ١٨٢٨ ، ومن عام ١٨٣٦ إلى عام ١٨٥٦ وكل إليه قسم العلاقات مع أهالى البلاد الأصليين فى شركة الهند الشرقية ، وبين عامى ١٨٢٢ و ١٨٢٣ أقام بين زملاء قليلين ما أسماه بمجتمع « المنفعة » utilitarisme .

انتهز ميل كل فرصة أتيحت له فى الصحف للكشف عن التصرفات غير السليمة فى البرلمان وفى المحاكم ، كما أنه كان يرسل مقالاته إلى الصحف أيضاً متناولا الموضوعات الفلسفية ، ومن أهمها مقالاته باسم « روح العصر » ونشرت مسلسلة فى صحيفة « أكزامينر » عام ١٨٣٠ وفى عام ١٨٣٥ أصبح رئيس تحرير صحيفه « لندن ريفيو » التى ضمت فى عام ١٨٣٦ إلى صحيفة وستمنستر ، وأصبحت تسمى « لندن آند وستمنستر ريفيو » التى ظل ميل رئيس تحرير لها ثم مالكا حتى عام ١٨٤٠ ، وفى ذلك

العام وما بعده نشر مقالاته فى «أدنبره ريفيو» ، كما كتب أعماله الكبرى أيضاً خلال هذه السنوات فى المنطق والاقتصاد السياسى ، وكان متأثراً بأوجست كونت ، ونيوتن فى عام ١٨٤٤ كما نشر كتاباً باسم « مقالات عن بعض المسائل التى لم تحل بعد فى الاقتصاد السياسى» وفى عام ١٨٤٨ نشر كتابه عن « مبادىء الاقتصاد السياسى » وبدأ دراسة الكتاب الاشتراكيين .

وقد تزوج مسز تايلور عام ١٨٥١ وقال انها هى التى أوحت إليه بما كتبه عن حقوق المرأة وانها هى التى أثرت على مثله العليا عن حياة الفرد والمجتمع ، كذلك تأثر ميل بتوماس كارليل وستيرلنج ، وقد توفيت زوجته بعد سبع سنوات من زواجهما وعاش بعد ذلك معظم ما بقى من حياته فى فيللا فى سانت فيران بالقرب من افينيون حيث ماتت زوجته ، وأخذ يبحث عن السلوى فى الكتابة عن علم الجمال والسياسة . وفى عام ١٨٥٩ كتب عن « الحرية » و « آراء فى الإصلاح البرلمانى » وفى عام ١٨٦١ كتب « دراسات فى الحكومة النيابية » و « مذهب النفعية » عام ١٨٦٣ و عام ١٨٦٥ « دراسة فلسفة سير وليليام هاميلتون » ، « أوجست كونت والإيجابية » .

وبرغم دراساته النظرية فإنه لم يتخل عن السياسة وأيد الشماليين فى أثناء الأزمة الأمريكية عام ١٨٦٢ ، وفى عام ١٨٦٥ انتخب نائباً فى البرلمان عن وستمنستر ورفض أن يلجأ إلى الوسائل التى يتبعها الناخبون محاولين جذب الأصوات .. بل أنه بصعوبة وجه خطاباً للناخبين ، وبالرغم من ذلك فإنه نجح وأدى دوراً هاماً فى مشروعات الإصلاح بين سنتى ١٨٦٦ و ١٨٦٧ للقضاء على الفساد واستخدم نفوذه فى الدعوة إلى أن الواجب

يقضى بتدخل انجلترا فى شئون السياسة الخارجية تأييداً منها لقضية الحرية[1] .

ويتخذ «ميل» لفلسفته الطابع العام الذى ساد القرن الثامن عشر وهو طابع التحرر ، فهناك حقائق فى المجتمع ظهرت ، تبرر اتخاذ هذا الطابع من جانب بعض المصلحين الاجتماعيين والمفكرين : كالثورة الصناعية وشقاء الطبقات العمالية والزيادة الهائلة فى عدد السكان والأمبريالية ، والتوسع الاستعمارى والاقتصادى ، ومحاولات تنظيم العالم العمالى فى نقابات إلخ .

وقد دفعت هذه الحقائق الجديدة عدداً من المفكرين إلى الاتجاه نحو الطريقة القديمة .. أعنى نحو اتخاذ القوة كوسيلة للحصول على بعض المكاسب للمجتمع الإنسانى . واتجه البعض الآخر إلى البحث عن إقامة مؤسسات لاسترداد حقوق المجتمع المسلوبة ، واتجه فريق آخر من أمثال بلانكى Blanqui وسورل Sorel إلى إقامة تنظيم هجومى بل بالأحرى عسكرى تقريباً للحصول على السعادة للطبقات المظلومة ، وبذلك اعتنق هؤلاء المفكرون وجهة نظر بعض المؤرخين التى تقول : إن تاريخ الإنسانية ما هو إلا سلسلة من تجارب القوة .

ويضع ستيوارت ميل حرية التفكير فوق كل شىء ، فمثله كمثل فورييه Fourier يريد حرية كاملة لأنه كما يقول :

« إلغاء القوة الجسمانية لا يكفى ، ولأن تسلط الرأى العام واللوائح الأخلاقية تستعبد حتى الروح . »

---

(١) للمترجم

فالشجاعة الأدبية التى تستطيع أن تقاوم التقاليد الموروثة أكثر ندرة فى الرجل من الشجاعة الجسمانية ، والوسيلة للهروب من خطر ركود المجتمع ومن بلاهته وبلادته هى الحرية ، وعلى الأخص حرية التعبير عن الآراء الجديدة ، التى هى المصدر الوحيد للتقدم الذى لا ينفد دائماً ، لأن الحرية تخلق من مراكز الإصلاح بقدر ما فى المجتمع من الشخصيات الحرة . » ولأن المجتمع يتجدد ويتطور كلية عن طريق عمل الأفراد الذين يتشكل منهم .

وبرغم الإعجاب الكبير الذى يكنه ستيوارت ميل للفلسفة الوضعية ولأوجست كونت ، فإنه ينبذ كلية مفاهيمه الاجتماعية . فهو لا يؤمن بفضائل الأنظمة ذات السلطة حتى التى تمارس عن طريق مجلس أعلى من العلماء والحكماء . أما من ناحية التطور السياسى فلم يعد هناك كما يقول إلا « نظامان يتصارعان من أجل استعلاء كل منهما على الآخر : الديمقراطية والبيروقراطية . والحل الوحيد الممكن اتخاذه اتجاه ذلك هو أن على الديمقراطية أن تستخدم البيروقراطية فى كل شىء ولا تستأثر لنفسها إلا بالمراقبة والإشراف » ، ويضيف إلى ذلك أن « سلطة مطلقة عادلة فى بلد متمدين إلى حد ما .. أكثر ضرراً أيضاً من قرار ظالم يقضى بإلغاء التفكير وقوة الشعب .

ويحاول ستيوارت ميل أن يوائم بين الاقتصاد الحر والمشكلة الاجتماعية . وهو ينهى بحثه بقوله :

« إن قرار هذه المواءمة سوف يتركز على هذا الاعتبار الواحد ، أى على معرفة أى النظامين يمكن أن يعطى الحرية الإنسانية والذاتية الإنسانية

حداً أقصى لأنه عندما نضمن وسائل الحياة تصبح الرغبة فى الحرية أقوى الرغبات عند الإنسان ، وبدلا من أن تفقد من قوتها فإنها تنمو بقدر نمو الاستعدادات الفكرية والأخلاقية » .

ولكى يحكم على قيمة التنظيمات المختلفة فإنه يجعل همه البحث عن مقياس غير المقاييس التى استخدمها غيره من قبل ، فهو يقترح أن نحكم على حسن أى تنظيم بما يحققه من الفائدة ، ومن السعادة المادية ومن الحرية لأكبر عدد ممكن من الأفراد . وقد حكم على مذهبه الذى أطلق عليه « مذهب النفعية » فى ذلك الوقت بأنه مذهب مناف للأخلاق .

ويقر ستيوارت ميل ، من ناحية أخرى ، انتقادات كل من « ريكاردو » و « مالتوس » فهو مثلهما لا يعترف بأن الديناميكية الاقتصادية وخاصة الديناميكية السكانية تؤديان إلى دعم الحرية . وهو يخالفهما فى طرق العلاج فلا ينتظر فى سلبية وقوع الكوارث التى تحد من عدد السكان بل يدعو إلى تنفيذ نوع من التربية الجنسية التى تؤدى إلى تحديد النسل ، وقد حكم الناس على هذا الرأى كذلك بأنه رأى مخالف للأخلاق .

وأخيراً ، يعتبر « ميل » أول المنادين بتحرير المرأة من ناحية الحقوق المدنية والحقوق السياسية لأنه كان دائم البحث عن أحسن الوسائل لتنمية الشخصية الإنسانية ، وكان أكثر وضوحاً من أوجست كونت فى هذه القضية ، لأن أوجست كونت اتخذها من الناحية العاطفية أكثر من أى شىء آخر ، أما ستيوارت ميل فقد اتخذها من ناحية المبدأ لا أكثر ولا أقل . ومن وجهة نظر ستيوارت ميل فإن العلاقات بين الرجال والنساء فى شعب واحد لها أهمية أكثر من العلاقات مع الشعوب الأخرى

وان قضية تحرير المرأة قضية رئيسية لتقدم الإنسانية ، وهى تقف على قدم المساواة مع قضية الطبقات المظلومة ، وهو كفورييه Fourier تماما فى اعتبار أن المرأة ضحية آثار التنظيمات القديمة والخرافات البدائية التى لا تستند اليوم إلى أى منطق أو أى تفكير سليم .

كارل ماركس Karl Marx (١٨١٨ — ١٨٨٣) .

فيلسوف ألمانى ولد فى بلدة تريف Tréves فى القطاع الألمانى من حوض « الراين » ، وليست لدينا معلومات واضحة عن طفولته وحياته الأولى وإن كان مؤكداً أن أمه لم تقم بدور كبير فى تعليمه وتثقيفه ، ثم أرسله أبوه إلى المدرسة الثانوية فكان موضع الثناء والتقدير من أساتذته بسبب نشاطه وجده وارتفاع مستواه الفكرى الذى بدأ فى مقالاته الأخلاقية والدينية التى كانت تقدم إلى أساتذته ، كما كان مبرزاً فى الرياضة والدراسات اللاهوتية ، وظهر كذلك بذكاء خارق فى الآداب والفنون .

وغادر ماركس المدرسة الثانوية وهو فى السابعة عشرة حيث التحق بناء على نصيحة أبيه بكلية الحقوق بجامعة « بون » ، وقد صمم فيما بينه وبين نفسه على متابعة جميع المحاضرات التى كانت تلقى فى ذلك الحين ، ومنها محاضرات عن « هومر » كان يلقيها « شليجل » المعروف ، ومحاضرات عن علم الأساطير اليونانية وفى الشعر اللاتينى وفى الفن . واشترك فى جميع ألوان النشاط الجامعى ، وغرق فى الديون حتى أذنيه ، ثم بعد ذلك ترك بون والتحق بجامعة برلين حيث تتلمذ فى الفقه على يد « سافينى » وفى القانون الجنائى على « جانز » ، ثم هجر ماركس دراسته القانونيه وكرس

نفسه لدراسة الفلسفة ورسم لنفسه خطة تقوم على إعداد نفسه ليكون محاضراً فى الفلسفة فى إحدى الجامعات ، وكان ماركس فى ذلك الوقت قد بلغ الرابعة والعشرين من عمره .

وقد تعلم اللغة الفرنسية عن طريق قراءة مؤلفات المفكرين الاشتراكيين الباريسيين أمثال « فوريه » و « برودون » الخ وقرأ التاريخ الفرنسى والألمانى الحديث ، كما قرأ كتاب « الأمير » لمكيافيللى وانكب على قراءة تاريخ الفن القديم والحديث .

وفى عام ١٨٤٣ تزوج ماركس « جنى فون وستفالن » ضد رغبة أكثر عائلتها . وكانت هذه الزوجة تتمتع بخيال عاطفى عميق ، وقد كرست وجودها كله لحياته وعمله واندمجت فيه عاطفياً وأخلاقياً ، فكان يعتمد عليها اعتماداً كلياً فى أوقات الشدة وفى أثناء الكوارث ثم هاجرا معاً إلى باريس حيث يجد فيها ماركس متسعاً لنشر مبادئه وأفكاره . وقد كتب بهذه المناسبة يقول :

«إن الجو هنا خانق لا يحتمل فى الواقع . فليس من العسير على المرء أن يتذلل حتى من أجل الحرية . لقد سئمت النفاق والغباء وفظاظة الموظفين الرسميين ، وتعبت من طأطأة الرأس وابتكار العبارات التى لاخطر منها ولا ضرر من ورائها . إن ألمانيا لم يعد فيها ما أستطيع أن أفعله . إن المرء لا يستطيع فيها إلا أن يكون غير أمين مع نفسه » .

لقد تأثر كارل ماركس بالفلسفة المنطقية للفيلسوف هيجل Hegel وبالفلاسفة الإنجليز الكلاسيكيين ، ولذلك فقــد استند إلى أن التاريخ لايمكن أن ينشأ عن طريق حوادث استبدادية مستقلة عن إرادة الإنسان،

بل هو خاضع لإرادة تحددها دوافع . وتتطور الصور الاجتماعية تبعا لبعض القوانين ، وبالوقوف على حقيقة هذه القوانين ، فان ذلك يعنى فى الوقت نفسه تلمس هذا التطور والتكهن بالمستقبل . وحتى يومنا هذا ، يعتبر التاريخ جميعه تاريخ صراع الطبقات ، فهو يقول :

« الإنسان الحر والرقيق وصاحب المهنة ، ومن لا مهنة له ، والأمير والعبد ورئيس العمل والعامل ، كل هؤلاء بالاختصار ظالمون ومظلومون ، أقام كل منهم ضد الآخر قضية لانهاية لها ، وقد أعلن هؤلاء فيما بينهم صراعا مستمرا ، صراعا خفياً تارة ومكشوفا تارة أخرى ، صراعا ينتهى بانقلاب ثورى للمجتمع كله ، أو بتحطيم الطبقتين معاً [1] »

وتقترب روحه الفكرية من روح الفلسفة الوضعية ، وعلى ذلك فمثله كمثل أوجست كونت فى الابتعاد عن إثارة القضايا الميتافيزيقية والاقتصار على دراسة الظواهر الاجتماعية ، وهو يقيم دراسة للمجتمع على نظريات اقتصادية ، ويعتبر أن هذه النظريات دعامة كل مجتمع إنسانى تسود فيه المساواة والإخاء .

وها هى ذى الخصائص الرئيسية لطريقة ماركس و « اجتماعيته » :

فهو يقيم مكان نظرية هيجل الجدلية التى تنادى بأن الحقيقة الجديدة نسبية لاتلبث أن تقابل بهجوم من حقيقة مضادة هى « النقيضة » لقضيتها ثم يتبع ذلك أن تدمر كل منهما الأخرى وهكذا دواليك .. فتستمر العملية إلى مالانهاية بمجموعة من التأثيرات أكثر تعقيدا ، حتى تتأثر القضية بنقيضتها فى نوع من حرية تبادل الآراء ، ومن ردود الفعل ومن الاستدلالات .

إن « الجدلية » عند ماركس لم تعد كما هى عنـــد هيجل نوعاً من

---

(١) للمترجم

المباراة الجدلية اللفظية ، لكنها أضحت نوعا من تحليل وضعى للقوى وخاصة فى مواجهة الأفعال المتبادلة .

ويرتب ماركس على هذا التحليل : لماذا وكيف هذه المتنوعات الاجتماعية ؟ ويحتضن كل مجتمع كثيراً من المتناقضات ومن القوى المتنافرة ، وكمية هذه المتناقضات لا تحصى ولا تعد . وبعض هذه التناقضات مثل المنافسات الوطنية والدينية أدمت العالم فى فترات عدة . ومع ذلك فماركس يعتبر أن أهم التناقضات الاجتماعية هو صراع الطبقات وفى كل مجتمع مثل مجتمع العصور القديمة ، ومجتمع العصور الوسطى (الإقطاع) أتخذ هذا الصراع صورة تختلف عن الأخرى .

ويرد ماركس على هؤلاء الذين لا يقرون أولوية هذا اللون من ألوان التناقض على غيره بحجة أنه لم يؤد إلى منازعات عنيفة ، بأن المنافسات الوطنية والدينية أخفت حقيقة الصراع الناشب بين الطبقات . وهو يعتبر من وجهة نظره أن هذه الشواغل (المنافسات الوطنية والدينية) ماهى إلا نوع من التصرفات اللاشعورية غالبا .

وقد ذكر ماركس أن تنظيم المجتمع على أسس قوية ودعامات ثابتة ينبغى علينا أن نبحث عنه فى الاقتصاد السياسى . والصراع دائما صدام بين بعض الطبقات التى تحدد معالمها العوامل الاقتصادية . والطبقة تعرف بأنها مجموعة من الأشخاص فى المجتمع يحدد حياتهم تمتعهم بوضع اقتصادى مشترك فى ذلك المجتمع . أما وضع الفرد الذى يقوم به فى عملية الإنتاج الاجتماعى فيعتمد هذا بدوره على طابع القوى الإنتاجية ودرجة نموها .

وقد نتجت عن هذا الصراع بين الطبقات العلاقات التى قامت بين

عنصرين أساسيين فى الحيــــاة الاجتماعية : القوى الإنتاجية من جهة وعلاقات الإنتاج من جهة أخرى . ويختص العنصر الأول بكل ما يؤدى إلى الإنتاج ، ويتضمن العنصر الآخر العلاقات القانونية التى نشأت بين الناس بمناسبة الإنتاج وتوزيع الثروة .

وتتطور القوى الإنتاجية تبعاً لإتقان الطريقة الفنية وتقدم العلوم وبذلك ينفسح المجال لإنتاج أكثر باطراد ، ولكن علاقات الإنتاج أشد صلابة فهى تقاوم التطور لأنها تخفى فى ثناياها مصالح خاصة . وبذلك يتوقف تطور القوى الإنتاجية ومن ثم يكون من الصعوبة بمكان تنمية الإنتاج ، وعلى ذلك ينشب صراع ، فتحاول القوى الإنتاجية الحصول بطريق الثورة على تغيير العلاقات الانتاجية الموجودة لتجعلها تسترد من جديد إمكانياتها الخاصة فى تنمية الإنتاج .

ومن جهة أخرى ، تؤدى الملكية التى تحوزها وسائل الإنتاج إلى ظهور طبقتين اجتماعيتين تعيش كل منهما فى صراع مع الأخرى : البورجوازية والبروليتاريا . والعمل الذى تؤديه هــــذه الطبقة الأخيرة يقدم فرقا كبيرا بين ثمن المنتجات وأجورها . ويعتبر هذا الفرق المصدر العام لأرباح الرأسمالية . ويوضح ماركس أن تضخم الفوائد أو الأرباح وحرية المنافسة تؤدى إلى الاحتكار الاقتصادى . وهــــذا الاحتكار الاقتصادى يزيد بدوره من شدة المفارقات الاقتصادية وتصارع الطبقات . وعلى ذلك فالملكية المحرومة من وسائل الإنتاج تؤدى كذلك إلى تكوين الاحتكارات التى يمكن أن تكفل لنفسها أرباحا مرتفعة دون تنمية الإنتاج ودون وجود الكفاية الإنتاجية .

وينعكس تأثير هذا على حساب العمال الذين لم يتمكنوا من الحصول

على توافق بين القوى الإنتاجية ووسائل الإنتاج إلا بثورة ، ويتحتم على هذه الثورة أن تؤدى إلى تغيير الملكية المحرومة من وسائل الإنتاج إلى ملكية جماعية . وسيخلق هذا التغيير توافقاً تاماً بين الإنتاج والاستهلاك ، وبذلك يختفى أحد التناقضات فى النظام الرأسمالى . ولا يؤدى الاحتكار الصناعى إلى كساد الإنتاج فحسب ، بل كذلك إلى تحويل الطبقات المتوسطة إلى بروليتاريا ، وعلى ذلك تتسلل البروليتاريا إلى معظم طبقات الشعب .

وقد ينشأ عن عدم اطمئنان العمال على مستقبلهم وعن تهديدهم من وقت إلى آخر بقذفهم خارج المجتمع ، وعن تكتلهم داخل المؤسسات ، تضامن وتكاتف قوى فيما بينهم . وبهذا التضامن والتكاتف يتولد فيهم إحساس اجتماعى وإحساس سياسى وهما دعامة التحرر المرتقب للبروليتاريا وللعمل ، فالبروليتاريا هى الطبقة الوحيدة الثورية من بين الطبقات الأخرى فى المجتمع .

ويتحتم أن يكون هدف البروليتاريا من النشاط السياسى الحصول بالقوة على السلطة السياسية ، ثم انتزاع جميع رؤوس الأموال شيئاً فشيئاً من البورجوازية ، لكى يتركز بين يدى الدولة كل آلات الإنتاج ، ولكى تزداد بأقصى سرعة القوى الإنتاجية .

والثورة التى تعقب الدكتاتورية الرأسمالية يتحتم عليها أن تؤدى إلى الديموقراطية وإلى مجتمع لا طبقى . ويتحتم كذلك أن يصاحب الإنتاج الجماعى الملكية الجماعية واختفاء الدولة . وسيحل محل الدولة بعد اختفائها تنظيم تلقائى . وسيكون هدف الاقتصاد الاشتراكى الجديد التنسيق المبنى على العقل للإنتاج والاستهلاك . وبعد أن يتحكم الإنسان فى ضرورياته

المادية ، سيستطيع أن يقيم نفسه بنفسه وسوف يرتفع بميدانه الروحى ، وسوف يعمل كذلك على الارتفاع بمستوى طبيعته .

ويمكن أن نقول : انه منذ القديس أوجستان Saint Augustin لم ينل أى مذهب اجتماعى من الحظوة والتقدير مثل ما ناله مذهب ماركس ، فقد أصبح هذا المذهب الاجتماعى الملهم المباشر والمؤثر النافذ لمعظم الحركات السياسية المعاصرة ، خصوصا فى القارة القديمة ، ولمجتمعات الجنس الأبيض التى انقسمت فيما بينها إلى اتجاهين ، وأصبح كذلك كعقيدة دينية للدول فى كثير من الشعوب ، وكان هذا بمثابة تحول خطير غير منتظر لمذهب جديد فوجىء العالم به ، فقابله الناس فى أول الأمر بحذر شديد .

وقد قادت أفكار ماركس رسميا تنظيم دول كثيرة وقلبت رأسا على عقب البنيان الاجتماعى القديم والأفكار الموروثة القديمة لبعض شعوب آسيا .

هربرت سبنسر Herbert Spencer (١٨٢٠ — ١٩٠٣)

فيلسوف انجليزى ولد فى دربى وكان والده مدرساً ورفض عرض عمه بإدخاله جامعة كمبردج ، وتلقى تعليمه بدلا من ذلك عن طريق القراءة وخاصة فى العلوم الطبيعية ، ثم عمل لعدة شهور مدرساً ، ثم مهندساً فى السكك الحديدية .

وقد أثرت فيه معتقدات والده المنشقة على الدين ، وأوحت إليه بروح عدم الانتماء إلى أى دين ، وفى عام ١٨٤٢ بدأ يرسل بعض

الخطابات إلى نانكو نفورميست (اللامنتمى) وأعيد نشرها فى كتيب عام ١٨٤٣ تحت عنوان « المجال السليم للحكومة » قال فيه :

« إن عمل الحكومة هو أن تعمل على تدعيم الحقوق الطبيعية وانه إذا تجاوز ذلك فإنه يسبب من الضرر أكثر مما يحققه من النفع » .

وبعد اتصاله لفترة معينة بصحيفتى « زويست » و « بيلوت » أصبح نائباً لرئيس تحرير الايكونوميست عام ١٨٤٨ ، وفى عام ١٨٥١ نشر « ستاتيكا الاجتماعية » التى ضمت معظم آرائه فيما بعد ، ونادى بضرورة أقصى حد من الحرية الاقتصادية والاجتماعية وفى عام ١٨٥٣ ورث هربرت سبنسر عمه واستقال من عمله فى صحيفة الايكونوميست .

وفى عام ١٨٥٥ نشر مبادىء علم النفس ، ويعتبر من كبار المفكرين « الجدليين » فى آخر العصر الفيكتورى ، كما أنه كان من بينهم أكثر من أثير حوله الجدل . وكان من أشد المتحمسين للنظرة العلمية الطبيعية للعالم . ومن أشدهم معاداة للنظرة إلى ما وراء الطبيعة وهو أول من نادى بنظرية « التطور » ولذلك كان أشد دعاة مبدأ الحرية Laisser Faire تحمساً مع عدم النزول عنه قيد أنملة ، وقد حث على دراسة الظواهر الاجتماعية بطريقة علمية . الشىء الذى قام هو به نفسه . وكان داعية التفاؤل فى العصر الفيكتورى ، ولكن ليس معنى هذا أنه لم يتأثر بروح التشاؤم التى كانت فى ذلك العصر ، والتى كانت تخيم عليه بين الحين والحين ، ولقد ورد فى تعاليمه أن « التطور » سيتلوه التحلل وأن « الفردية » لن تجد نفسها إلا بعد عصر يشهد الاشتراكية والحرب .

نشر فكرته عن التطور قبل داروين وراسل وآلاس . وتختلف فكرة سبنسر عنهما فى أنه يرجع إلى وراثة القدرات المكتسبة على حين

أن الآخرين يرجعانها إلى الاختيار الطبيعى ، ولـكنه قبل فيها بعد نظرية التطور على أساس الاختيار الطبيعى ووضع عبارة « البقاء للأصلح » فى مبادىء علم الأحياء وإن ظل متمسكا بأن التغييرات التى تصيب جزءا من حيوان معين نتيجة لمؤثرات خارجية يمكن أن تورث من يأتون من بعده .

وتقضى نظريته « التطورية » بأن التطور يحدث لـكل شىء إلى أن يحدث نوع من التوازن يليه التحلل ثم التكامل من جديد ثم التوازن فالتحلل إلى ما لا نهاية . وقد طبق هذه النظرية على المجتمع الإنسانى من جماعات أشبه بالقطعان ، ثم تنقسم ويزداد تقسيمها إلى أن تصل إلى المدنيات المعقدة التى تمثل تطور العقائد والأعمال وفئات المجتمع المختلفة .

وفكرة سبنسر عن المجتمع فكرة « تركيبية » و « موسوعية » لكن الفكرة الأساسية هى نشر « التطورية » فى جميع الميادين السياسية والاقتصاديةوالاجتماعية ، لأنها تعتبر خلاصة جميع الأفكار الفلسفية فى ذلك الوقت[1] .

وعمل العلم فى نظر سبنسر استخلاص الصورة القطعية الدائمة لعدد من الحقائق المتغيرة . والقوانين القطعية هى قانون الاحتفاظ بالقوة وقانون التطور . وكل طريقة للوجود فى نظره، كما فى نظر « كونت » عبارة عن تطور لطريقة سابقة وتطور بذور طريقة لاحقة .

ويحتوى قانون التطور على تغيير بطىء لتحرير مجموعة من المواد المتجانسة إلى مواد غير متجانسة ، إذن ، فهذا القانون عبارة عن تطور

---

(١) للمترجم

الاختلافات المتباينة فى جميع الميادين . فنى الميدان الاجتماعى تبدأ مجموعات من الناس بأن تكون نوعا من القبائل يكون أعضاؤها جميعاً على مستوى فكرى وتكنيكى واقتصادى واحد . ثم بعد ذلك ينظمون أنفسهم بأنفسهم ويصبحون مجموعات مركبة حيث نلمس فيها شيئاً .. فشيئاً اختلافاً فى تقسيم العمل وفى العلاقات التشريعية بين الأفراد .

«وكونت» الذى يؤمن بتوقف الظواهر ينكر إلى حد كبير «الميكانيكية» وينتهى إلى نوع من الحرية على حين أن سبنسر يعتقد أن هذه الحرية مستمرة فى التطور . وإذا كانت الحرية تحكم الميكانيكية، فهذا لأنها خارجة منها ، وذلك بفضل نوع من السببية الدائمة التى هى التطور نفسه ، ولكن التوازن بين وجهة نظر سبنسر ليس بالشىء الدائم أى الذى يمكن أن يستمر فترة طويلة .

ونظرية التطور عند سبنسر تعارض التطور العكسى والتحلل والرجوع إلى اتحاد العناصر المختلفة ، والذى يبدو له من وجهة نظره مرادفاً لكلمة انهيار أو شيخوخة . وقد انتقد مسيو لالاند Lalande هذه المفاهيم وأشار إلى أن معظم التقدمات الأخلاقية تتم عن طريق تماثل الأفراد وعن طريق مرونة البناء الاجتماعى المتصلب أو هدمه وإعادة تنظيمه من جديد .

وفى السياسة ، يعتبر سبنسر من المفكرين المحافظين بصورة تختلف عن كونت ، فدور العمل الإدارى الفردى بالنسبة له دور لا أهمية له . فتطور الجماعة محدود بعادات لاشعورية راسخة فى التركيبات العنصرية الموروثة . والحكم الحقيقى لهذه الجماعات يتمثل فى مزاج الشعب نفسه ، وعلى ذلك فكل محاولة انعزالية للتغيير — حتى لو كانت هذه المحاولة من جانب دكتاتورية عادلة حكيمة متزنة كما تخيلها أوجست كونت — تبدو للفيلسوف

سبنسر محاولة بعيدة عن العقـــل ، وخارقة للصواب تدل على الجهل بميكانيكية المجتمعات وسرعة تطورها التى لا تقف عند حد . فكل شىء جديد ومستحدث لا بد أن ينبثق تلقائياً عن المجتمعات على حسب تكوينها وظروفها التى تعيش عليها .

ويحاول سبنسر جهد طاقته أن يستخلص قانوناً عاماً لتطور المجتمعات . فهو يبين أن هناك نموذجين :

١ — النموذج العسكرى الذى يغلب فيه الإكراه والقوة ويمثل هذا النموذج الإقطاع .

٢ — النموذج الصناعى القائم على تقسيم العمل الذى يغلب عليه ظهور العلماء والمهندسين ورجال الصناعة .

وخلاصة القول .. اعتبر سبنسر كأنه مؤسس لوجود حياة المجتمعات بوساطة العلاقات التى يطورها بين مختلف الوظائف الاجتماعية وبين علاقات النمو العضوى للمجتمع ، ولكنه يلاحظ أنه ليس فى النمو العضوى للحيوان إلا مركز واحد حساس . وهذا المركز الواحد الحساس يتركز فقط فى رأس الحيوان . وكل الحيوانات مشتركة فى هذه الظاهرة، على حين أنه فى الهيكل الاجتماعى للأفراد تتمتع جميع الأعضاء بهذه الظاهرة . ومن هنا يستخلص نتيجة هامة جداً .. هى أنه بينما لا يوجد وجدان اجتماعى مشترك بين الجميع ككل ، بل يوجد فى الأفراد ، فإن نهاية الحياة الاجتماعية هى الفرد . وعلى ذلك يقرر سبنسر أنه يتحتم أن يخدم الكل الجزء لا العكس ، بمعنى أن على المجموع أن يخدم الفرد وليس الفرد هو الذى يخدم المجموع .

نيتشة Nietzsche (١٨٤٤ — ١٩٠٠) :

لم يكن نيتشة اجتماعياً بمعنى الـكلمة ، ولـكن قام بطريقة غير مباشرة بدور هام فى التفـكير الاجتماعى والسياسى . فقدكان من الأوائل الذين انفصلوا عن تقليد حب الشعب والمساواة (على الأقل المساواة الروحية التى سادت منذ ظهور المسيحية) فقد راح يدافع عن تنظيم أرستقراطى واعتنق مبدأ التضحية بالمجموع من أجل الأفراد المميزين وهو يقول : إن كل شىء مباح للارستقراطيين الحقيقيين .

وباختصار فإن نيتشة يتـكهن بظهور أرستقراطية جديدة ويدعو إلى تحريرها من قيود المسيحية ومن التواضع والشفقة ، وسوف تتبنى هذه الأرستقراطية الجديدة نمطاً أخلاقياً يهدف إلى اعتبار الشعب وسيلة لتحقيق عظمتها فى خدمته « إرادة القوة » .

وهو فيلسوف ألمانى ولدفى ريكن Roechen وهى بلدة صغيرة بالقرب من ليبزج . كان معظم أفراد عائلته من رجال الدين . ممن شغلوا مناصب دينية كبيرة، وقد توفى أبوه وهو فى سن الخامسة . وفى سن الحادية عشرة تقريباً التحق بمدرسة بفورتا Pforta ثم غادرها إلى جامعة بون بعد ست سنوات ، وفى خلال تلك الفترة ، أظهر تفوقاً كبيراً فى دراسة اللغويات والآداب الـكلاسيكية ، وفى العام الذى تخرج فيه من الجامعة ، اختير أستاذاً لفقه اللغة فى جامعة بازل .

وكان مصدر وحى تفـكيره الفلسفى شوبنهور Schopenhawer وفاجنر Wagner ، بيد أنه انقطع عن التدريس فى الجامعة ، ثم أخذ يطوف بأرجاء إيطاليا وسويسرا . وبعد هذه الرحلات ، بدأت فترة

أخرى فى حياة نيتشة ألا وهى فترة التأليف والكتابة . وكان كل كتاب يؤلفه يعد نصراً على حالة العمى التى أصيب بها والصداع وغيرهما من الأمراض الكثيرة التى أصابته ، وتنتمى أعماله الكبرى إلى هذه الفترة ، ولم يشتهر حينئذ إلا عند ما كان جورج برانديس يحاضر عن نيتشة فى جامعة كوبنهاجن عام ١٨٨٨ . وبعد عشر سنوات أصبحت شهرة نيتشة تطبق الآفاق . وفى يناير عام ١٨٨٩ أصيب بانهيار عصبى وجسمانى وظل فى شبه حالة جنونية إلى أن مات .

ويرى نتيشة أن الداعين للنظم الاشتراكية مخطئون فى فهم ما يجب أن يكون عليه مفهوم البنيان الاجتماعى ، ومخطئون كذلك حينما ادعوا أنهم وضعوا أنفسهم موضع الطبقة الدنيا وأحسوا بما هم فيه من آلام . لأن الآلام لا تزيد إلا كلما ارتفع المستوى الثقافى ، والطبقة الدنيا هى طبقة أقل إحساساً بالآلام . ويرى نيتشة أن العدالة الحق هى أن تمنح الطبقة الحاكمة قدراً من المساواة . أما أن تطالب هى بالمساواة فهذا حقد وطمع . والواقع أن هذه تعتبر دعوة منه إلى الاعتراف بتقسيم النصيب فى الميدان الاقتصادى والثقافى والاجتماعى .

ويرى نيتشه أن تحقيق حياة أفضل لأكبر عدد ممكن من الناس تقضى على التربة التى نبتت فيها العقول الكبيرة والأفراد العظام . وحجته فى ذلك أن الإنسانية إذا وصلت إلى حد الاكتفاء بين أفراد المجتمع فلن تتقدم بعد ذلك خطوة واحدة . وهو ينكر على الطبقة الدنيا مهما أخذت من أسباب التقدم والحضارة أن تكون قادرة بأية حال على خلق الأفراد العظام ، لأن هؤلاء يخلقون تلقائياً . أما الطبقة العليا فهى التى يجب أن تحكم وتقود وتوجه الشعب كما تريد .

والغريب فى الأمر ، أن نجد نيتشة يناقض نفسه بنفسه حيث يقول :

« إن التفرقة بين الحكومة والشعب ، كما لو كانا يمثلان مجالين منفصلين من مجالات القوى يتعامل أحدهما وهو الأقوى والأرفع ويتحد مع الآخر وهو الأضعف والأحط ، هذه التفرقة جزء من فهم سياسى موروث لا يزال يمثل النظرة التاريخية الثابتة للعلاقات بين القوى فى معظم الدول تمثيلا صادقاً ، وعلى العكس من ذلك ، ينبغى أن يعلم الناس الآن ، وفقاً لمبدأ يصدر عن الذهن وحده ، ولا يزال عليه أن يشق طريقه فى التاريخ ، أن الحكومة ليست إلا أداة الشعب ، وليست شيئاً عالياً مبجلا بالقياس إلى شىء أدنى قد اعتاد الضعة والانحطاط » .

إذن فنيتشة كان يؤمن بتذويب التفرقة بين الحكومة والشعب وليست هناك طبقة « عليا » وطبقة دنيا .

ويبنى نيتشة فكرته التى يؤمن بها وهى فكرة التفاوت الطبيعى بين الأفراد ، على أن الطبيعة لا تعرف إلا التفاوت فى الرتبة ، وكل محاولة لجعل الناس متساوين محاولة مضادة للطبيعة ، ويحمل نيتشة على كل مفكر يحاول مناقشة هذه الفكرة لأنها من البديهيات التى لا تحتمل النقاش . ويستطرد نيتشة فى هذه النقطة بالذات فيقول إن مراتب الناس الحالية فى المجتمع هى مراتبهم الطبيعية نفسها : فالثروة فى رأيه مصدر لعراقة الأصل : « إن الثروة تولد بالضرورة أرستقراطية فى الجنس ، إذ تمكن من اختيار أجمل النساء ، ومن جلب خير المربين ، وهى تضفى على الرجل صفاء ، وتمنحه الوقت الذى يتعهد فيه جسمه بالرعاية ، وأهم من ذلك كله ، تعفيه من العمل البدنى الثقيل . وفى موضع آخر يقول :

« إن كل ارتقاء بالنوع الإنسانى كان حتى اليوم من عمل مجتمع أرستقراطى ، وسيكون كذلك دائما : أعنى مجتمعا يؤمن بالتفاوت الكبير فى المراتب بين الإنسان والإنسان وتباين قيمة كل منهما ، ويرى الرق بأى معنى من معانيه ، ضرورة محتومة » .

وفى موضع آخر نرى نيتشة يحمل حملة شعواء على أغنياء عصره وخاصة أصحاب الأعمال منهم . ويؤكد أنهم ليسوا أصلح الناس اطلاقا حيث يقول : « لقد كانت العلاقة بين الجنود وقوادهم دائما أرفع بكثير من علاقة العمال بأصحاب العمل ، وهنا يتحكم قانون الحاجة فحسب : أى أن المرء يريد أن يعيش وعليه أن يبيع نفسه غير أنه يحتقر ذلك الذى يستغل هذه الحاجة ويشترى منـــه العمل ، ومما يسترعى الانتباه أن الخضوع لأشخاص أقوياء يثيرون الخوف والرعب ، أى الخضوع لطغاة أوقواد جيوش لا يكون إلا بقدر الخضوع لأشخاص غير معروفين ولا همية لهم كالحال فى كل رجال الصناعة الكبار : فالعامل لا يرى فى صاحب العمل عادة إلا شخصاً تافهاً يتصف بالخديعة والجشع . ومن الجائز أن كل رجال الصناعة وكبار رجال الأعمال فى التجارة يفتقرون تماما حتى الآن إلى كل صفات « العنصر الرفيع » وسماته التى بدونها لا تكون للشخصية قيمة ، ولو كان لهم ذلك السمو الذى تضفيه عراقة الأصل على نظراتهم ومحياهم . فربما لم تكن تقوم لاشتراكية الدهماء قائمة ، وذلك لأن الدهماء يمكنهم أن يتحملوا كل أنواع العبودية بشرط أن يثبت من يعلو عليهم انه أرفع منهم بحق وانه « وَلِد » لكى يأمر وذلك عن طريق صورته الرفيعة ، غير أن الافتقار إلى الصورة الرفيعة والتفاهة الوضيعة التى يتصف بها أصحاب المصانع بأيديهم الحوراء السمينة تثير فى ذهن العمال تلك الفكرة ، وأعنى بها أن الاتفاق والحظ وحدهما

هما اللذان رفعا الواحد فوق الآخر فتكون النتيجة أن يقول العامل لنفسه حسنا فلنجرب نحن الاتفاق والحظ ، ولنلق نحن بالنرد ، وهنا تبدأ الاشتراكية » [1]

ولنيتشة رأى خاص فى المرأة باعتبار أنها تمثل دعامة من دعامات المجتمع الإنسانى ، فهو يرى أن طبيعة المرأة ذاتها عقبة ضد تحريرها إذ أنها محافظة بطبيعتها تحترم السلطة السائدة والأفكار التى يقرها المجتمع . وهو يؤكد أن « الروح الحرة لا تعيش مع المرأة » ، والرجل من جهة نظره أعمق بكثير من المرأة فى روحه ورغباته وآماله فى الحياة . ولذلك فهو ينظر إلى المرأة على أنها متاع للحياة ، وأن دورها فى المجتمع هو الدور الذى يجب أن تقوم به داخل منزلها ، ويقصر دور المرأة على إنجاب الاطفال ورعاية الزوج وإذابة شخصيتها فيه .

---

(١) للمترجم

الفصل الثانى

المدارس الاجتماعية

يعتبر سبنسر آخر من تحدث من أعلام الفكر الاجتماعى عن النظم الاجتماعية ، ونعنى بذلك النظم التى حاولت جهد طاقتها أن تدمج بعض الظواهر الاجتماعية فى نظرية عامة للعالم . ومنذ عهد سبنسر ، شاهدنا ظهور عدد من المدارس لها طابع مشترك . وهذا الطابع المشترك بين كل مدرسة وأخرى [illegible] وجهات النظر الاجتماعية التى أطلق عليها أخيراً « اجتماعية الدوافع » .

ونظريات الدوافع التى أطلق عليها سوروكان Sorokin اسم « نظريات من طرف واحد » تشترك جميعها فى رأى واحد ؛ فهى تحدد موقفها من وجهة نظر واحدة ميكانيكية ، والمقصود بها تفسير تغير المجتمعات . وهذه التغيرات واضحة بينة ومتعددة ، ولكن أسبابها متشابكة معقدة ، ومن الصعب تلمسها والوقوف على أساليبها ، ولكى نصل إلى تفهم أسباب هذه التغيرات وما يحيط بها من تعقيدات ، يجب علينا تحليل حقائق المجتمع وتفسيرها .

وقد اهتم واضعو هذه النظريات اهتماما كبيرا بدراسة تشعب الدوافع التى تؤدى إلى التغييرات الاجتماعية وتهيئتها . وتنصب المناقشة فى هذا الموضوع على أهمية الأعمال الخاصة لهذه المجتمعات وحدودها ، وعلى معاييرها إذا جاز القول .

والنقط المشتركة بين هذه النظريات بعضها وبعض هى :

(١) أن تبحث هذه النظريات عن دافع هام .

(٢) أنها بوجه عام ، توافق بكل صعوبة على أن دور كل من هذه الدوافع خاضع بنفسه لبعض التغييرات والتقلبات . والدافع القطعى اليوم يمكن أن يؤدى دوراً ثانوياً فى الغد تبعاً لبعض الظروف أو العوامل ، وهذا لا يمنع قطعاً من أن يسترد دوره القطعى بعد اختفاء طال أو قصر نتيجة لظروف جديدة .

المدرسة النفسية

ويمثل هذه المدرسة حق التمثيل جابرييل تارد Gabriel Tarde (١٨٤٣ — ١٩٠٤) وهو يعلن تفوق الدراسة النفسية على الدراسة البيلوجية . وتفسر التطورات العقلية الفردية المتكررة أهمية الظواهر الاجتماعية .

وهناك حقيقتان من الأهمية بمكان : الأولى الاختراع أو التجديد ، والأخرى المحاكاة أو التقليد . فالحقيقة الأولى ظاهرة فردية ، ومن خصائصها الخلق ، وإنشاء الطرائق الفنية ، وكذلك التنظيمات الجديدة ، أما الحقيقة الأخرى فمن خصائصها تعميم هذه المستحدثات ومحاكاتها ونشرها .

ويمكن تعريف المجتمع بأنه مجموعة من الأفراد يقلد بعضهم البعض الآخر ، ويقول جابرييل تارد : إن هناك صورتين رئيسيتين للتقليد هما : « تقليد التقاليد » التى تنتقل من جيل إلى جيل آخر ، والأخرى بين أفراد الجيل الواحد نفسه وهى « تقليد العادة » وعلى أية حال فإن التقليد بوجه عام وبصورتيه السابقتين ينتقل عادة من الأعلى إلى الأسفل ، ونعنى بذلك

أننا نقلد تلقائيا الأشخاص أو المجتمعات التى لها فى نظرنا كيان مرموق وسلطة قوية . ويلاحظ جابرييل تارد أن للتقليد طريقتين : الطريقة الأولى تنحصر فى تقليد « النموذج » ، أما الأخرى فهى تبنى « النموذج » المضاد (التقليد — المضاد) .

ويشبه جابرييل تارد حياة المجتمعات ببحيرة تعبرها سلسلة من الأمواج ذهابا وجيئة . وغالبا ما تصطدم هذه الأمواج بعضها ببعض . وينتج عن ذلك ، التحامات أو مصادمات أو مصالحات .

والنفسية الاجتماعية — من وجهة نظر جابرييل تارد نفسية وجدانية . وينبغى عليها والحال هذه أن تبحث عن تعاريف للحالات المختلفة التى عن طريقها يؤثر كل مجتمع فى الآخر ، ويحمل كل منهما طابع الآخر . وهذه الظاهرة بالضرورة ظاهرة نفسية ، وتحتوى على أطوار ومواقف وتطورات مميزة مثل المعارضة والنفوذ والإلهام والبرهنة والسلطة .

والنقد الذى وجه إلى جابرييل تارد أنه أطلق العنان إلى أقصى حد لفكرة التقليد ، والحقيقة أنها لم تكن واضحة تمام الوضوح ، وأنه طبقها على جميع الظواهر المتشابهة .

واحتلت دراسة الظواهر النفسية المقام الأول عند علماء اجتماعيين آخرين أمثال فاكسفيلر Waxuveiller ووسترمارك Westermark وتعزى المكانة الأولى لتفسير الظواهر الاجتماعية من وجهة نظرهما إلى الغرائز والميول أو الاستعدادات . وقد سار على هذا المنوال كثير من علماء الاجتماع الأمريكيين أمثال جيد ينجز Giddings وكولى Coaley وسمول Small وعلى الأخص ماكدوجال Mac Dougall وهذا الأخير فى دراسته

للنفسية الاجتماعية ، يبدأ بسيكولوجية السلوك وهى طريقة مأخوذة عن المفكرين الإنجليز ، ومن ثم يحاول أن يلاحظ بدقة « محاكاة » ردود الفعل النوعية بقصد أشياء محدودة .

والشيء الذى يثير الانتباه هو دراسة الجماهير . فجميع المفكرين الذين أتينا على ذكرهم آنفاً متفقون على أن أى جمهور من الناس ليس هو حصيلة أعضائه الذى يتشكل منه ، بل إنه نوع من جوهر سيكولوجى متميز عن السيكولوجية الفردية . وقد قامت هذه الدراسات أولا على التظاهرات المريضة للجمهور : العنف وحمامات الدم والسلب ، والنهب ، والعصيان إلخ . ويتمخض عن ذلك نتائج كلها تشاؤم تجاه الجماهير التى تبدو وكأنها جماهير عشوائية أو جماهير عنيفة أو جماهير إجرامية . وهذا يعتبر حكما جزئياً من هذه الوجهة ، لأن هناك آلافا من الجماهير الهادئة الوادعة » .

ويمكن أن يدرج من بين المدارس النفسية ، المدارس التى اهتمت بنفسية الشعوب . مثل المدارس الألمانية لهربارت Herbart ، ولازاروس Lazarus ، وستنتهال Steinthal .

ونضيف إلى هذه المدارس المحاولة التى أجريت فى هذا الميدان من جانب جوستاف ليبون Gustave Lebon وفويه Fouilleé وكيسرلنج Keyserling وايلى فور Elie Faure ومادرياجا Madriaga . . . إلخ .

وقد أسدت مدارس التحليل النفسى لفرويد Freud ويانج Young وأدلر Adler خدمات عظيمة ومساعدات كبيرة لعلم الاجتماع النفسى . فقد حددت عددا معينا من الملاحظات النفسية ، وبصفة عامة لا شعورية ونموذجية . وتأتى هذه الملاحظات فى أغلب الأحيان من مواقف اجتماعية

وهى توضح الانعكاسات فى حياة الإنسان الداخلية ، والمصادمات التى تنشأ عن المضايقات الاجتماعية والأحداث التى تظهر فى صورة احتجاجات علنية أو مظاهرات . وتعبر الانعكاسات فى حياة الإنسان الداخلية عن مدى المنافسة بين جيل وجيل آخر . فمركب النقص ، وامتداد التعويض مظهران أساسيان من مظاهر فوارق الطبقات الاجتماعية التي نعنى بها التسلسل الطبقى الذى يبدأ من طبقة النبلاء إلى طبقة الاداريين إلى طبقة الشعب إلى طبقة المهندسين .

ويفسر الشعور بالذنب عددا من الاتجاهات ومن ردود الفعل . وقد يتجه هـذا الشعور من فرد من الأفراد إلى صورة التخريب والدمار فى ذاته لكل شيء . وقد يتحول هذا الاتجاه فى فرد آخر إلى منافسات ، وإلى أحقاد وبغضاء وإلى خوف وإلى اضطهادات .

وقد نلاحظ الأهمية الضخمة لهذه النماذج فى الحياة الاجتماعية وفى نضج المذاهب الدينية والسياسية ، ويوضح الشعور بالذنب مدى عمق المبادىء الأخلاقية المتأصلة فينا وهى متمثلة دائما فى فكرة الإثم والخطأ والعزاء والاستشهاد والتكفير والتوبة والعقاب . وتقوم كل هذه الأمور بدورهام فى الحياةالسياسية والاجتماعية، ويمكن القول بأن طابع كل بنيان اجتماعى هو إثارة بعض مركبات النقص . وتعبر مركبات النقص هذه عن القلق والاضطرابات والمتناقضات ، والعقبات التى تتمخض عن المنظمات والمعتقدات الجامدة ومصادماتها ، وتعتبر الحوادث التاريخية مثل الحروب والثورات والأزمات إلخ عن طريق الآلام التى تسببها خالقة لمركبات النقص فى المجتمع التى توحى بعـــد ذلك بردود الفعل والاتجاهات المميزة لأى جيل .

المدارس الميكانيكية والبيولوجية

يمكن أن يتجمع تحت هذا العنوان مدارس كثيرة متنوعة . ومن هذه المدارس تنطلق عدة وجهات نظر مختلفة لا لشىء إلا لـكى تصل إلى نتائج خالية من كل وجهة نظر « غائية » ومن كل اعتقاد فى أية نتيجة حاسمة تؤدى إلى تطور الإنسانية . وتثبت وجهات نظر هذه المدارس عن طريق العلوم الطبيعية والبيولوجية ما عرف عن ابن خلدون وهوبز Hobbes من قدرية متشائمة مستسلمة ، وما عرف عن هوبز من تشيعه فى الفلسفة لمذهب المادية وفى الأخلاق لمذهب النفعية ، وفى السياسة لمذهب الاستبدادية .

وقد تشكلت أول مجموعة من هذه المدارس عن طريق هؤلاء الذين ينكرون كل اتجاه صادر عن العناية الإلهية يقود الإنسانية نحو تقدم وإصلاح متواصلين . ونلاحظ أن أصحاب هذه المدارس يتخذون موقفا متميزا عن موقف مفكرى القرن السابع عشر وخاصة ديكارت وسبينوزا وجروتيس Grotius ، ومالبرانش Malebranche وليبنز Leibniz حتى بيل Bayle وكل هؤلاء أعداء لفكرة الغائية ومذهبها ، ولتغلغل الأخلاقية فى كل مذهب .

وقد بدأ الاقتصاديون الأوائل بأن كانوا علماء بيولوجيين مثل كسناى Quesnay ، أو فلاسفة مثل آدم سميث . أما ماركس وبارتو Pareto فقد بدآ بدراسة الاقتصاد أولا ثم انتقلا إلى دراسة الاجتماع ثم أدمجا الاثنين معاً .

ويعتبر بارتو Pareto ، مثـله فى ذلك مثل « فالراس » Walras

« وكورنو » Cournot أحد مؤسسى الاقتصاد الرياضى ، فقد حاول أن ينقل إلى علم الاجتماع طرائق التحليل الرياضى . ويمكن القول بأنه حتى عهد بارتو ، كان عند جميع علماء الاجتماع موقف تصوفى تقريبا يكاد يكون غير ملموس . ويهدف هؤلاء جميعاً إلى اتجاه أساسى ، وهدف مشترك نحو مستقبل الإنسانية . ومنذ عصر الحضارة ، وجميع المفكرين يعتقدون تطوراً حتمياً ، فالبعض منهم ركز دراسته وأفكاره على الأضواء المتزايدة التى تشعها الحضارة على الإنسانية ، والبعض الآخر ركز على دراسة نظريات التقدم .

والواقع أن علم الاجتماع الكلاسيكى كان لايهتم بتاتا بالطريقة القصصية التى درج عليها المؤرخون . فكان هؤلاء يغتبطون ويسرون من سرد الحوادث الكثيرة المثيرة ذات الطابع التراجيدى والمسرحى . وكانوا يفضلون غالباً سرد قصص الانقلابات والمصادمات العنيفة ، ولكن علماء الاجتماع اعتبروا أن هذه الحوادث ماهى إلا سلسلة من الحوادث المسرحية التى تتعاقب الواحدة بعد الأخرى ، ولكنها لاتعتبر مادة خصبة لدراسة أى مجتمع من المجتمعات ، ولانواة تقوم عليها دراسة اجتماعية علمية . والحقائق التاريخية التى تفيد علماء الاجتماع فى دراستهم للمجتمع الإنسانى هى التغيرات التى حدثت تجاه تشكيل الأنظمة الاجتماعية ، وتجاه طريقة الحياة والمعارف والمعتقدات والأنظمة السياسية . وبذلك يكون الغرض من دراسة المجتمعات ، إنما هو محاولة لاستخلاص معنى هذه التغيرات . ولا يكفى من هذه الدراسة اكتشاف المعنى العام للتطور الاجتماعى ، بل يجب بجانب ذلك البحث فى التاريخ عن أدلة وبراهين تؤيد هذا التطور ، وهذا التغير .

وهناك اتجاه فى نظرية « الدوافع » ، فكل نظرية من هذه النظريات تحاول أن تغلب شأن « دافعها » ثم تبادر بعمل قائمة من الحقائق ، لتثبت نظريتها ، ولكن بارتو لم يتبع هذا الاتجاه ، بل يحاول أن يثبت أن كل مجتمع عبارة عن جهاز من الموازنات بين قوى مختلفة . وقد يكتب البقاء لأى مجتمع طالما أن العلاقات بين هذه القوى تؤكد تماسكه المتواصل . وقد حاول بارتو من جانبه تحليل هذه القوى ، فذكر أن بعض هذه القوى اقتصادية ، ولهذا فهى تخرج عن إطار علم الاجتماع ، ولكى يبحث عن أهم القوى الأخرى ، فإنه يحاول جاهدا أن يكشف عن عدد معين من البقايا الثابتة للقوى تبعاً لتنوع ظاهراتها . ويعتمد تطور المجتمعات على مقدار هذه القوى المختلفة ، ولكن قد يتنوع هذا المقدار نتيجة لظهور صور جديدة من التوازن على غير انتظار . وبذلك لا يسهل التكهن بما سيكون عليه التطور الاجتماعي .

وقد أكثر بارتو من التأملات المتشائمة التي جلبها عليه تفكيره المتناقض ليزيد من أهمية اختلاف وجهات نظره تجاه المجتمع مع المذاهب الكلاسيكية . ويعلن على الملأ أمام الذين يعتقدون التقدم الثابت والمتواصل للديموقراطية أن حكم الأرستقراطيات حتى العنيفة منها قد دام بعض الوقت . وأما بالنسبة لهؤلاء الذين يعتقدون التقدم الأخلاقى ، فهو يحاول أن يبين عن طريق جمع بعض الحقائق المتناقضة ، أن الخرافات مازالت جزءاً من معتقدات الإنسان ، لأن الإنسان فى حاجة إلى أن يشعر بأنه مكبل فى أغلال عدد من المعتقدات ، حتى لو كانت غير مطابقة للعقل .

وبالرغم من الطابع « الميكانيكى » لمفاهيمه الاجتماعية ، فإن بارتو يعلق أهمية كبيرة على الاختلافات العنصرية للأفراد التى ينتج عنها

ظواهر تدرج الطبقات، وعدم المساواة الاجتماعية. ويتضمن هذا التدرج ظاهرة «دورة النخبة الممتازة» أعنى التنقل المتواصل للأفراد الذين هم أحسن موهبة من الطبقات السفلى نحو الطبقات العليا؛ وهذا التنقل قائم على «الإخصاب» المتميز. والطريقة التى تنتج عنها دورة «النخبة الممتازة» والتى تعتبر إحدى الخصائص التى تميز نماذج المجتمعات.

وقد حلل م. جينى M. Gini النتائج الشديدة التنوع لتذبذب التوازن الاجتماعى وبخاصة فى ميدان الاقتصاد. وأوضح أن بعض هذه التذبذبات ليس لها إلا نتائج وقتية أو محدودة جداً، أما البعض الآخر منها، فإنها تحدث تغييرات جذرية فى البنيان الاجتماعى، وهناك تذبذبات أخرى تحدث تغييرات كلية ينتج عنها تنظيم جديد من أساسه للمجتمع وللعلاقات الاجتماعية.

مذاهب الجنس والاختيار

يرى أصحاب هذه المذاهب أن الاختلافات فى الحضارة وفى القوى لبعض المجتمعات تتوقف على المواهب الفطرية لكل جنس. ويترتب على هذه المواهب أن كل جنس معد سلفاً ليحتل مكانته التى لا بد أن يصل إليها بالضرورة الحتمية.

ونلمس الإيمان بهذه النظرية والاعتماد فيها فى كل المجتمعات القديمة تقريباً.

فمثلا فى مجتمع القبيلة يعتقد جميع أفرادها أنهم مرتبطون ارتباطاً وثيقاً بروابط الدم. وهم يعتبرون أنفسهم من سلالة جد حاكم أو بطل

عظيم . أو سلالة لإله ، أو سلالة لحيوان ، توتيميك Totémique (وهذا الحيوان هو الذى كانت تعتبره بعض القبائل البدائية أنه جد أو إله لها) . وكانت مثل هذه القبائل تحتقر القبائل الأخرى وتنظر إليها على أنها قبائل دنسة غير طاهرة ، وزنديقة ، ووضيعة .

ولكن بمجرد أن اتسع أفق العالم ، وانتقل من مجتمع ضيق الحدود ومن قبيلة تنتسب إلى جد حاكم أو بطل عظيم ، ومن مجتمع النبلاء إلى شعب كثير العدد ، اصطدم أصحاب هذه النظريات بالتمايز بين اللغة والدين والحضارة والجنس فى مجتمع واحد أو فى شعب واحد . ولقد حدث هذا الأمر فى التمايز فى الجنس بين اليونانيين والبربر . أما الصينيون ، فقد ظلوا على ولائهم على هذه الأسطورة واستمروا يطلقون على أنفسهم أنهم من « أبناء الهون » أو من سلالة « مائة العائلة » .

وفى أثناء القرن التاسع عشر كانت الظروف التاريخية مهيأة لتوحى بمذهب تسلسل الأجناس وحتى ذلك الوقت كان العالم مقسماً إلى كثير من الحضارات الكبيرة ذات وسائل الإنتاج المتقاربة ، وكانت كل منها تفاخر الأخرى بعلو شأنها فى الميدان الدينى والأخلاق والثقافى . فمثلا ، الصين واليابان والعالم المسيحى والعالم الإسلامى كان ينظر كل منهم إلى الآخر على أنه عالم من البربر ومن الزنادقة .

ولقد شاهد القرن التاسع عشر الحضارة الأوربية تخطو خطوات سريعة نحو التقدم ، على حين كان معاصرو الملك لويس الرابع عشر يتحدثون عن ملك الأتراك بأنه « أعظم ملك فى العالم » أما بالنسبة

لوجهة نظر المعاصر لعام ١٨٦٠ ، فقد أطلق على الأمبراطورية التركية اسم « الرجل المريض » وكانت الهند فى القرن التاسع عشر مستعمرة ، والصين دولة هرمة واليابان مملكة هزيلة . وكانت معظم الحضارات التى تفاخر بنفسها تحنى الرأس أمام الحضارة الاوربية .

وقد تبلورت هذه الظاهرة وانعكست آثارها فى شكل مذاهب ، فقد نشأ عن ذلك نظرية جوبينو Gobineau التى تتحدث عن عدم المساواة بين الأجناس البشرية . فالعامل الأساسى عند جوبينو لتقدم المجتمع أو تخلفه هو العامل العنصرى ، فعندما يتخلف أو يتدهور يرجع ذلك إلى أن تكوينه العنصرى تغير نتيجة اندماج عنصرين معاً فى شعب واحد . وهو يؤكد أن هناك أجناساً « رفيعة » وأجناساً « وضيعة » وأن معظم الأجناس غير قادرة أبداً على أن تتطور وتتقدم نحو سلم الحضارة الإنسانية ، وحجته فى ذلك أن بعض الشعوب التى كانت تعيش فى بيئة طبيعية مواتية ظلت على حالتها البدائية . وهو يعلن أن الأجناس الثلاثة (الأبيض والأصفر والأسود) لكل منها أصل يختلف عن الآخر . ومن هذا الاختلاف ، تنتج خصائص نفسية دائمة البقاء لا يغير منها غير اختلاط الأجناس . وهو لا يؤيد هذا الاختلاط ، لأنه من وجهة نظره وخاصة من الجنس الأبيض يهدد الطابع الأخلاقى والفردى للجنس البشرى بالانهيار والتخلف .

وكانت نظريات جوبينو نقطة بدء لمبالغات شديدة حتى انتقلت من مرتبة كونها نظرية إلى مذهب سياسى مما أدى إلى انتشار الاضطرابات والثورات الدموية فى العالم . وقد تكهن فاشر دى لابوج Vacher de Lapouge تلميذ جوبينو فى عام ١٩٠٠ بأنه بعد بضع عشر سنوات ،

سيقتتل الناس فيما بينهم بالملايين من أجل اختلاف مقاييس مراتبهم .

وقد لاحظ بعض المفكرين أن تلك علامة محققة تدل على تمايز الأجناس . وقد انقسم الناس من وجهة نظرهم إلى نوعين : نوع تستطيل عنده الجمجمة (الطول أكبر من العرض) والنوع الآخر تضيق عنده الجمجمة (العرض أكبر من الطول) . وهم يعتقدون أن استطالة الجمجمة تدل على ما لصاحبها من مكانة كبيرة ، واستمر هذا الاعتقاد سارياً إلى أن اكتشف وجوده عند الجنس الأسود .

ومن ثم ظهر على مسرح الأجناس عدد معين من نظريات الاختيار ، وكانت هذه النظريات جميعها تعلق أهمية كبيرة على العامل الوراثى نتيجة لتأثرها بمذهب داروين Darwin وكان لابوج Lapouge تلميذ جوبينو يلقى المسئولية على المبادىء الأخلاقية التى تفسح الطريق فى المجتمع الحديث أمام بقاء الضعفاء . وبعث الوضعاء . وقد يتمخض عن الاختيار الاجتماعى الناقص انحدار المجتمع وانحطاطه .

وعلى العكس فإن أتو آمون Otto Ammon الذى ينطلق من وجهة النظر هذه نفسها على منوال بيرسون Pearson ينتهى إلى نظرية متفائلة للتدرج الاجتماعى . فهو يقول إن جميع الأنظمة منذ الطفولة والمدرسة تقوم بوظيفتها كأنها حواجز لتقف سداً منيعاً أمام غير القادرين ، ولتفسح الطريق أمام ذوى الاستعدادات ليتعلموا وتقوم بتوزيع أعضاء المجتمع على حسب الكيف .

ولكن المفكر الانجليزى م . سوروكان Sorokin أوضح هذه النقطة نفسها فى مؤلفه التحرك الاجتماعى Social Mobility ، وأكد أنه إذا كان

الأمر كذلك فيجب على المؤسسات أن تقوم بهذا الدور ، لأن أى إيمان كلى فى فضائل الوراثة يتعارض بشدة مع هذه الصورة من الاختيار لذوى الاستعدادات فى المجتمع . ومن أجل هذا ، فإن نظام الطوائف الذى هو بمثابة المذهب الاجتماعى القائم على الاعتقاد فى الوراثة أضحى عاملا لا أهمية له .

وتتعارض نظريات الأجناس مع الإنسانية والمثالية فى المجتمع ، ومعنى هذا أن هذه النظريات تؤيد قضايا هيردر فى خاصية عدم انتقال «الأرواح» والثقافات الشعبية . وتبعاً لوجهات نظر هذه القضايا فإن الإنسانية ستظل محبوسة فى سلسلة من القدريات التى ينتج عنها اختيار إجبارى ، إما استمرار وجود عدم المساواة والفوارق عن طريق الخوف والرعب من اندماج الأجناس بعضها فى بعض ، وزيادة خطورتها على المجتمع الإنسانى ، وإما قبول اندماج الأجناس والانغماس فى تدهور وانحطاط فى المجتمع بشكل لا يمكن علاجه فى يوم من الأيام .

وأخيرا فإن المفكر الاجتماعى جالتون Galton انتهى إلى نتائج مختلفة فى مجموعها برغم فروقها الدقيقة جداً ، وذلك بعد عمل ملاحظات استنفدت منه كل صبر واحتمال ؛ فهو يرى أن الاستعدادات الفطرية موزعة بين أعضاء مجتمع واحد أو جماعة واحدة على حسب قوانين نظرية الاحتمالات

وقد ذكر بعض المفكرين الاجتماعيين أن هناك تشابها كبيراً بين صراع القوى فى العالم الحيوانى وبين صراع القوى فى المجتمعات الحديثة ، ولكن البعض الآخر ، ينكر هذا التشابه ويستبعده لوجود فوارق واضحة بين هذا وذاك . فكلما أصبحت المجتمعات الإنسانيـــة أكثر اتساعا ، وأكثر

تفكيرا ، وكلما تعقد تقسيم العمل ، فإن عوامل التنظيم . أعنى عوامل المساعدة والتعاون تغدو أكثر أهمية .

أما فيما يختص بالنتائج الجماعية للحرب ، فكثيرا ما يلابسها تعقدات وتناقضات . وقد يحدث أن يتكاثر عدد الجنس المنتصر أكثر من الجنس المهزوم ، وخاصة فى البلاد التى يتزوج فيها الرجل عدة نساء ، أو المرأة عدة رجال ،وكذلك فى الجنس الذى يمارس خطف النساء والذى ينتج عنه حينئذ امتزاج الأجناس بعضها فى بعض بصورة شديدة . وأحيانا يحدث العكس فى البلاد الأخرى ذات الحضارة ، فإن الجنس المهزوم الذى ينتكس إلى طبقة أسفل يأخذ مكانة الجنس المنتصر شيئا فشيئا عندما يقل تكاثر الطبقة الموجهة خصوصا فى المجتمعات التى لا يسمح فيها بالزواج إلا من امرأة واحدة .

المدارس الأنثروبولوجية والأثنولوجية

كان توسيديد Thucydide وفيكو Vico من أوائل المفكرين الاجتماعيين الذين علقوا أهمية كبيرة على العلوم الاجتماعية فى دراسة المجتمعات البدائية .

فى القرنين السابع عشر والثامن عشر ، اهتم المفكرون الاجتماعيون بدراسة قصص الرحلات ودراسة أخلاق الشعوب القديمة . وقد نعتَ الأفريقيون البدائيون والأمريكيون وسكان المحيطات فى العصور الوسطى حتى القرن السادس عشر بأوصاف فيها كراهية واشمئزاز لمجتمعاتهم . ثم أتى بعد ذلك ، رد الفعل المضاد فى القرن الثامن عشر ،وكان هذا انتصاراً

لأسطورة « المتوحش الطيب » الذى تحدث عنه جان جاك روسو وشاتوبريان Chateau briand .

وفى القرن التاسع عشر ، بدأت دراسات موضوعية للمجتمعات البدائية . فقد اكتشف شيئا فشيئا كيفية تنظيمها ، وجهاز القبائل ، وفروعه واختلاف مفاهيم القرابة الإنسانية .

وقد وضح لدى مفكرى القرن التاسع عشر التشابه بين التنظيمات البدائية ، وبين تنظيمات أصول الإنسانيـــة . وقد أشار « ماسكراى Masqueray إلى التشابه كذلك بين تنظيمات البربر فى شمالى أفريقيا وبين تنظيمات المدنية اليونانية البدائية . وفى مؤلفات شهيرة لجيمس فريزر James Fraser ، ذكر أن بعض التنظيمات البدائية تحولت شيئا فشيئا حتى أصبحت تنظيمات لشعوب أكثر مدنية .

ولكن تفسيرات جيمس فريزر كانت قائمة على نظام فى التفكير يتشابه عند جميع الناس فى جميع العصور ، أما من جهة نظر ، ل . ليفى برهل L. Lévy-Bruhl فقد كان فرضه على عكس ذلك حيث يقول : « إن نظام الفكرة البدائية يختلف عن نظام الفكر عند رجال هذا العصر ، ولا يكمن هذا الاختلاف فى معتقداتهم وتفسيراتهم للعالم المتغير فحسب ، بل وفى طريقة التدليل على الأشياء كذلك . وأصل المطابقة التى تغلب على طابع تفكير هذا العصر تعارض طريقة المشاركة عند البدائيين؛ فقد يكون الإنسان هو ذاته أو شيئا آخر . وتمتد الذاتية الإنسانية فى كل توابعها ويمكن المرء أن يؤثر عليها عندما يمتلك طيفها أو بعض أجزاء من جسمها . »

وهذا يؤدى بنا إلى قوانين السحر ، فيتمثل السحر كأنه انحراف

« للتكنيكية » بل هو « تكنيكية كاذبة » ، وعلم كاذب ، فقد تتفق تقريباً طرائقه مع قائمة « السفسطة » كما يحددها المنطق الكلاسيكى ، وأهم بنود هذه القائمة هى « قانون الاتصال » و « قانون التشابه » . وقد أشار لويس فيبر Louis Weber إلى كيفية أن السحر كان يمثل أقصر الطرق ، وتفهم الأمور يتكون على الأخص عن طريق التشابه مع العلاقات الاجتماعية ، وإمكانيات تحضير الأرواح عن طريق التخاطب والرسم والكتابة .

وينبغى لدراسة طبائع السلالات البشرية أن نضيف عليها دراسة العادات الشعبية (الفولكلور) . والدور العام الذى يقوم به هو تبيان ما تخلف عن آثار العقلية البدائية والسحر فى الشعوب المتمدينة ، وبخاصة بين سكان الريف .

تجديد علم الاجتماع المثالى

يتميز هذا التجديد بطابعه الحيوى أو « الديناميكى » فيقول فوييه Fouillée : إن آمالنا تحتوى على أفكار وآراء « محركة قاهرة » idées-forces ستؤثر إن آجلا أو عاجلا على الحقيقة وستساعد على تغيير العالم . أما كارل ماركس فقد أعطى ما أطلق عليه اسم « الدافع الذاتى » أهمية كبيرة وكان جورج سورل Georges Sorel أحد الداعين إلى مثالية « العنف » وكان يعلن أنه يتحتم على التنظيم المهنى أن يحل محل الدولة التقليدية ، ولكى يحدث هذا ينبغى على البروليتاريا أن تتصف بالفضيلة وبالاستعداد للكفاح . وقد شاءت سخرية الزمن أن يكون موسيلينى هو تلميذه وأن يقوم بما قام به باسم الشعارات التى أطلقها سوريل .

ولم يفت برجسون Bergson أن يتوج أعماله الفلسفية برسالة عن دراسة المجتمعات ، فهو يعتقد أن المجتمعات فى أية لحظة متحركة بوساطة مثل أعلى مسيطر عليها . ولكن هذا المثل الأعلى يتغير ، لا عن طريق المصادفة ، ولكن عن طريق الحركة الدائمة فى جميع الاتجاهات . وعندما يستنفد جهاز أو نظام محتواه المنطقى ، أو عندما يحقق نفسه فى المنظمات إلى درجة تخرجه عن طابعه الأصلى أو مثله الأعلى الذى رسم له ، وأن يثير مقاومات عنيفة ، ما يلبث أفراد هذا النظام أن يتخلصوا منه ، ويختاروا لأنفسهم مثالا أعلى مضاداً ، وهذا ما يطلق عليه « قانون الهذيان المزدوج » ويفسر هذا القانون حركات التاريخ الواحدة تلو الأخرى ، وظهور أنظمة من المعتقدات والمجتمعات التى تزيح كل منهما الأخرى من أمامها بالتوالى . ولكن برجسون يعتقد اعتقاداً راسخاً فى التطور وأنه خالق ومبدع . فكل الظواهر سواء أكانت نفسية أم اجتماعية أم تاريخية غير قابلة للرجوع إلى الوراء وهى كذلك — للأسباب نفسها — غير ممكن التكهن بها . وهو لا يعتقد إطلاقاً فى « القدرية » بجميع صورها المختلفة ، فهو يقول . « إن مستقبل الإنسانية سيظل غير محدود المعالم لأنه يعتمد عليها » .

ويقسم برجسون المجتمعات إلى جماعتين رئيسيتين : المجتمعات المفتوحة والمجتمعات المقفلة .

ففى المجتمعات المقفلة ، يقف القائمون بالأمر فيما بينهم غير مبالين بقية أفراد مجتمعهم على استعداد للصراع أو عن الدفاع عن أنفسهم ، مجبرين على أن يتخذوا لأنفسهم طريق الكفاح ، وهذا هو طابع المجتمعات البدائية المحصورة والمعزولة . وهو يشير إلى مجتمعات الحشرات

التى لها خصائص مشتركة مع المجتمعات البدائية بقوله : « يكون موقفها فى نهاية إحدى الخطين الهامين من التطور الحيوانى ، كما أن المجتمعات الإنسانية يكون موقفها فى نهاية الخط الآخر » .

أما المجتمعات المفتوحة فهى المجتمعات التى تحتضن فى الأصل الإنسانية كلها ، ويكون الاختلاف فيما بينها فى الكيف لا فى الكم .

وإزاء النظريات التى تحدد عمل الأفراد وأفكارهم بمكانتهم فى المجتمع يذكر برجسون « أن هناك نبلاء تعاونوا على إنجاح ثورة ١٧٨٩ التى ألغت امتياز النسب والحسب الذى كان يعطى الفرد فى المجتمع مكانة عظيمة » ... « وأن القفزات الكبرى التى كانت موجهة ضد عدم المساواة أتت من أعلى لا من أسفل » .

وقد رد برجسون على إميل فاجيه Emile Faguet الذى كتب يقول : إن الثورة اندلعت لأن الشعب كان يموت جوعاً ، بقوله : « يجب أن نعرف لماذا رفض الشعب عند لحظة معينة الخضوع للموت جوعاً ؟ » .

البَابُ الثالث
المواقف الحاضرة لعلم الاجتماع

الفصل الأول

التباعد بين المذاهب والنظريات

يبدو لنا اليوم أن علم الاجتماع قد دخل مرحلة جديدة ألا وهى المرحلة العلمية . وقد أعقب المرحلة القديمة للأنظمة الكبرى وللنظريات الكثيرة التى كانت تفسر الحياة الاجتماعية بحركة واحدة أو بعمل دافع واحد ، مرحلة التجزئة . وبمجرد أن تعدى الإنسان التشابه الكلى فى المجتمعات البدائية ، أضحت الحياة الاجتماعية مادة معقدة تتشابك فيها الأعمال المتشابهة لكثير من الدوافع . وهذه هى إحدى العقبات للعلوم الاجتماعية . وتعمل الدوافع المختلفة بقوى شديدة متنوعة أشد التنوع على حسب العصور والظروف ، وتبع ما نطلق عليه فى كلمة واحدة اسم « اللحظة التاريخية » .

وقد أراد رواد علم الاجتماع أن يبدءوا « بالتركيب » . وفى إحدى المناقشات الشهيرة لاميل ليفاسير Emile Levasseur عن علم الاجتماع أنهى حديثه بقوله : « أنصح علماء الاجتماع بالاعتدال » .

وقد حافظ علم الاجتماع على هذا النصح من قبل هذا الأخصائى فى الأبحاث الإحصائية . وقد بدأ علم الاجتماع يخطو خطوات إلى الأمام بكل حكمة واتزان ، ويصنف ويجزئ ويحلل كذلك .

وأول هذا التمايز الذى ينبغى علينا أن نوضحه بكل عناية فى جميع العلوم وبخاصة فى علم الاجتماع هو الاختلاف بين المذاهب والنظريات . فحتى العصور الوسطى ، كان من الصعب على الفلسفة أن تتخلص من الديانة التى كانت بمثابة الخادمة لها ، وكان علم الاجتماع معرضاً على الدوام

للخضوع لتيارين : التيار الفلسفى والتيار السياسى . والفضل الأكبر الذى يعزى إلى أوجست كونت أنه أبعد الدراسة الاجتماعية والتفكير الاجتماعى عن الميتافيزيقيا ، ولكن ظهر أنه من الصعوبة بمكان تحرير علم الاجتماع من تأثير السياسة المقنع أو المكشوف .

ومن الواضح أن المرء لا يستطيع أن يطالب السياسة بالتوقف عن التدخل حتى يتم تشكيل علم اجتماعى قائم على أساس واقعى من الحياة الاجتماعية الخالصة للإنسان ، وبعيد عن أى مؤثر خارجى أو داخلى . ولا يغرب عن بالنا أن الانقلابات السياسية هى التى حركت أو نبهت التفكير الاجتماعى ، وهى التى أثارت حيوية الفكرة .

ولم تحاول الاتجاهات السياسية المختلفة أن تندمج فى علم الاجتماع إلا عن طريق انحراف المذاهب ، فكل صاحب مذهب من هذه المذاهب لم يعبر إلا عن جميع آرائه واختباراته الشخصية . فالأداة العلمية لكل مذهب تقوم على إثبات حقيقته بالبراهين الثابتة ، وبالحقائق المؤكدة . فكل مذهب اجتماعى تتوافر فيه هذه الأمور يكون صالحا للتطبيق ويصبح بجانب ذلك مذهباً تشريعياً .

أما النظريات ، فهى تحتوى على ترتيب الحقائق وتفسيرها بوساطة مجموعة من الفروض ومن المبادئ القابلة للمناقشة عندما تظهر حقائق جديدة لا تتفق معها . وعلى ذلك فالنظرية تشارك العلم من حيث التعميم « والتركيب » المحدود .

ويؤدى الفرض دورا آخر : دور إثارة البحث الذى تقدم له اقتراحات « يمكن » إثباتها والتحقق منها بوساطة البحث أو التجربة .

إميل دركهيم Emile Durkheim (١٨٥٨ — ١٩١٧)

مفكر اجتماعى ولد فى مدينة ايبنال Epinal فى شرق فرنسا . وعندما أتم دراسته الثانوية ، تقدم لمسابقة الدخول فى مدرسة المعلمين العليا بباريس Ecole Normale Supérieure وتتلمذ فيها على كبار الأساتذة . وبعد أن تخرج فى هذه المدرسة اشتغل بالتدريس فى المدارس الثانوية . وقد أتيحت له فرصة الذهاب إلى ألمانيا فى إجازة علمية . وقد هيأت له هذه الفرصة دراسة نظمها وأساليبها ودراساتها العلمية . وقد انكب هناك على دراسة علم الاجتماع على أيدى أساتذة كبار أمثال « فاجنر » و « شمولر » و « فونت » ويقال إنه تأثر كثيرا بأفكار هؤلاء أكثر من تأثره بأفكار « أوجست كونت » . ولما عاد من ألمانيا ، خصص نفسه لدراسة علم الاجتماع ومما ساعده على ذلك أن كلية الآداب بمدينة بوردو بفرنسا أنشأت كرسيا لمادة علم الاجتماع ، فعهدت إليه بالإشراف على هذا القسم . فبدأت عنايته تتضاعف فى معالجة بعض المشكلات الاجتماعية . وكان مما يميز دركهيم عن غيره من المفكرين الاجتماعيين أنه كان يجمع بين تدريس علم الاجتماع والتربية .

وكانت أول مشكلة عالجها وألف فيها رسالة نال بها درجة الدكتوراه فى السوربون مشكلة « تقسيم العمل الاجتماعى » ثم ألف كتاباً عظيما رفعه إلى مصاف كبار الأساتذة وهو « قواعد المنهج فى علم الاجتماع »

ثم انتقل من بوردو وأصبح أستاذاً لعلم الاجتماع في عام ١٩٠٢ في « جامعة السوربون[1] » .

ويعتبر إميل دركهيم أحد الذين ساعدوا مساعدة كبيرة على إضفاء خصائص العلم الحقيق على علم الاجتماع . وبفضل تأثيره الشخصى التف حوله كثير من تلاميذه وأسس مدرسة ساعدت بقوة على تقدم معرفة الظواهر الاجتماعية .

وتمثل أعمال دركهيم مجهوداً ضخماً فى إقامة أساس علمى ارتكز عليه علم الاجتماع ، وفى سبيل هذا الهدف ، أنشأ مجموعة من المعانى الشاملة لهذا العلم ، وحدد تحديداً قاطعاً طرائقه فى البحث والتفسير . وبهذا حصل علم الاجتماع « الدركهيمى » على مكتسبات كثيرة ومفيدة نذكر منها :

١ — الحقيقة الاجتماعية : يقول دركهيم : « إنه ينبغى على علم الاجتماع أن يعد طرائقه العلمية ، وألا يقوم بدراسة الظواهر الاجتماعية عن طريق المصادفة ويتحتم عليه بعد أن يضع فى الأصل « نوعية » المجتمع تحديد الحقيقة الاجتماعية » .

ويقول دركهيم : « إن الحقيقة الاجتماعية تعرف بخاصيتها الواقعية . وفى الواقع ، أنها لا تعتمد علينا فى تغييرها إلى حسب هوانا ، بل هى تمثل حقيقة خارجة عن الفرد . وفى مواجهة الفرد ، تعرف الحقيقة

---

(١) للمترجم .

الاجتماعية عن طريق القهر . ويمكن دراسة الحقيقة الاجتماعية موضوعياً ، شأنها فى ذلك شأن دراستنا « للأشياء » . ويقول دركهيم : « إن الشيء قد يتعارض مع الفكرة ، كما أن ما يعرفه الفرد خارجيا قد يتعارض مع ما يعرفه داخليا » .

(٢) التمايز بين أحكام القيمة وأحكام الحقيقة : تشمل أحكام الحقيقة منطوق بعض البديهيات البسيطة مثل « الثلج أبيض » . أما أحكام القيمة فتشتمل على تقدير ، وهذا التقدير هو الذى يحدد هدفه فى الحياة الاجتماعية ، وقد يصبح هذا الشيء لا معنى له بدون هذه الحياة ؛ ومثال ذلك ، أنه لن يكون هناك قيمة اقتصادية لسلعة من السلع دون أن يكون لها حق التبادل مع سلعة أخرى ، وأن يكون لها سوق ، وكذلك القيمة الأخلاقية : فعندما نقول « بيير خير » فالمقصود من ذلك معنى مضاف مشتق من الحياة الاجتماعية .

(٣) معيار الإكراه : كل شيء يثير إلزاما أو إكراها شيء اجتماعى صرف ، وهذا الشيء الإلزامى إما أن يكون إيجابيا أو سلبياً . وقد ينتج هذا عن مقاومة مادية، مثلا عندما نرغب فى شراء أو بيع شيء زيادة عن قيمته المستحقة مهما كان العقاب الملزم ، وعندما لا نهتم باتباع ما جرى عليه العرف مهما كانت عقوباته الشديدة ، وعندما نصطدم بقوانين البلد أو قواعدها الأخلاقية .

وأما من حيث أفراد المجتمع فإنهم يحملون فى أنفسهم هذا الإكراه

أو الإلزام . وقد يظهر فى داخل نفوسهم تحت صورة عدم الارتياح والملل وتبكيت الضمير .

(٤) تقسيم العمل : كان آدم سميث يعتبر تقسيم العمل الحقيقة الرئيسية للاقتصاد . ويبين دركهيم أن تقسيم العمل يحدد كذلك الأخلاق والقانون وبقدر ما تزداد « الكثافة الاجتماعية » تزداد من ثم حدة تقسيم العمل، وعندما يحدث هذا التطور فى المجتمع فإن ميدان قانون العقوبات الذى يوصف بالعقوبة الرادعة ، سينكمش فى سبيل ظهور القانون المدنى الذى يوصف بالعقوبة المصلحة ، وبذلك ، تتجه الطبقة المهنية إلى أن تحل محل الطبقة الارستقراطية أو العسكرية التى تحتل مكان القيادة دائماً . ويحل العقد محل القانون . وقد أثبتت الأحداث الأخيرة وجهة نظر دركهيم كما كذبت وجهات نظر سبنسر . Spencer

وهى تبدو أنها تشير إلى إمكانية تنظيم صناعى ذى سلطة قائم على العمل الإجبارى وتسلسل ذى طابع عسكرى ، أعنى الطابع الذى تحل فيه العقوبات الجنائية (السجن والنفى والتحقير) محل العقوبات الاقتصادية (التأجيل . والغرامة ، والحرمان) .

ونرى أن بوجليه Bouglé عندما طبق طريقة دركهيم يؤكد أن أفكار « المساواة » لم تنتشر إلا فى المجتمعات الكثيفة بالسكان وبخاصة فى المدن الكبرى .

ونحن لا يمكننا التحدث عن علم الاجتماع إلا عن قوانين أو مؤثرات

تقريبية، ونرى أن القوانين الاجتماعية لها هدف محدود فى المكان والزمان وأى مفكر يحاول أن يضع قانونا فى علم الاجتماع ينبغى عليه أن يجيب عن هذه الأسئلة : أين ؟ ومتى ؟ وفى أى الشروط ؟

وقد بدأنا بعرض للمواقف الحاضرة لعلم الاجتماع على حسب وجهة نظر دركهيم ، وهو يعتبر أول من أبعد علم الاجتماع عن الدين وعن الفلسفة وعن السياسة . وربما قد ذهب أبعد من ذلك ؛ فلشدة تحمسه البالغ ، أراد أن يغير من وظائف علم الاجتماع ، وأن يحاول أن يجد فيه التفسير النهائى للدين ، والفلسفة . وقد انتهى إلى القول بأن درجات الفهم هى الإشعاع للتركيبات الأولية الاجتماعية .

الفصل الثانى

الهدف الحاضر لعلم الاجتماع

كان التفكير فى المسائل الاجتماعية أيام الاغريق يتضمن معرفة عميقة بالتاريخ وحياة المجتمعات ، وكان يتضمن بجانب ذلك معرفة بمعتقداتهم الدينية والفلسفية وبالأساطير ، والايديولوجيات التى تعبر عن أعمالهم وأفكارهم وقوانينهم وتنظيماتهم السياسية ، وحياتهم الاقتصادية . وعلى ذلك ، فقد ظهرت الفلسفة الاجتماعية كأنها تتويج لكل هذه الأعمال وكأنها نتيجة لحصيلة معارفنا السابقة .

ونجد هذا الوضع « الموسوعى » للفلسفة الاجتماعية عند جميع المبشرين بهذا العلم . ونحن نعرف المكانة التى كان يحتلها التفكير فى العلوم الطبيعية والطبية ، وقد استرعى أوجست كونت الأنظار إلى هذا الوضع الجديد لعلم الاجتماع بتصنيفه العلوم وبمنهجه فى الفلسفة الوضعية .

ومن وجهة أخرى ، فإن تاريخ علم الاجتماع يشير إلى أنه من الصعب علينا تصور وجود مفكرين اجتماعيين خلص . ونحن نرى هؤلاء ملزمين فى دراستهم بالاستناد إلى حصيلة علم أو أكثر من العلوم الخاصة ، وقد يكون أحد هذه العلوم تشريعياً ، والآخر اقتصاديا أو نفسياً .

أما من جهة هؤلاء الذين أرادوا برغم كل شىء إنشاء علم اجتماعى مستقل تمام الاستقلال فإنهم قد اتجهوا إما إلى نظام كله تعاليم جبرية ، وإما إلى نظريات شكلية أو خداعة إلى حد ما ، مثل نظريات فون فيز Von Wiese

ففون فيز يبنى وجهة نظره على أساس تأثر كل فرد بالأفراد الآخرين وينتج عن هذا التأثر «مسافة اجتماعية» تختلف عن المسافة المادية التى تفصل بينهما . وتعبر هذه المسافة الاجتماعية عن مدى التقارب والتوافق الاجتماعى بين الأفراد أو تعبر عن مدى التباعد والنفور بينهم . ويعتبر فون فيز أن الموضوع الرئيسى لعلم الاجتماع هو دراسة شبكة المسافات أو الأبعاد الاجتماعية التى بين أفراد المجتمع . ويفسر المسافات أو الأبعاد الاجتماعية بنوعين من العمليات الاجتماعية .

النوع الأول : التكيف الاجتماعى والتمثيل الاجتماعى ، وهى عمليات تقارب وتواصل واندماج وتوافق .

النوع الآخر : يتكون من عمليات أبعاد وانفصال ومنافسة وتصادم .

وقد أوضح لنا فون فيز أربع صور من الأشكال الاجتماعية :

(١) الجماهير المؤقتة : ويمتاز هذا الشكل بعدم استقرار العلاقات الاجتماعية بين الأفراد .

(٢) الجماهير المجردة : ويمتاز هذا الشكل بعدم خضوع الجماهير لعلاقات اجتماعية منظمة أو ثابتة وكأنها تمتاز باستمرارها .

(٣) الجماعات المنظمة : ويمتاز هذا الشكل باستمراره وتواصله النسبى والتى تمتاز فيها العلاقات الاجتماعية بمبدأ التخصص وتوزيع العمل ، والتى سيكون بين أفرادها تقاليد مشتركة وتقصر بينهم المسافات الاجتماعية .

(٤) الهيئات المجردة : ويمتاز هذا الشكل بتباعد واتساع نطاق المسافات والأبعاد الاجتماعية بين الأفراد المكونين لها مثل الدولة التى تمثل

السلطة السياسية والكنيسة التى تمثل السلطة الدينية والطوائف المهنية التى تمثل السلطة الاقتصادية وهكذا [١] .

وسواء أردنا أم لم نرد ، فقد كرس علم الاجتماع العام نفسه ليظل فلسفة على نطاق واسع لعدة علوم اجتماعية على حسب تعبير رينيه ورمز René Worms ، لأنه يعتبر مقدمة وخاتمة مشتركة لمجموعة من العلوم الاجتماعية . والسبب فى ذلك كما يقول بوجليه Bouglé أن علم الاجتماع العام يستحيل عليه « أن يبدأ إلا عند ما تنتهى بعض العلوم الأخرى » وينحصر دوره فى التحليل والتفسير واستخلاص بعض وجهات نظر أو قوانين عامة من حصيلة العلوم الأخرى بقدر الإمكان، وإذن فهو لا يمكن أن يمثل دور العلم الشكلى . بل ينحصر دوره فى إقامة تصنيف عام وإعداد « مسلمات » ملموسة وحقائق . لكن لا يمكن لهذه الحقائق أن تنسب إليه إلا عن طريق العلوم الاجتماعية الخاصة . وقد يؤدى أى مفهوم آخر لعلم الاجتماع إلى أن يصنع منه إما جهازا خالصاً من التعليم ، وإما نوعا من التفكير الذى يعمل فى الفراغ أى التفكير النظرى . ومهما يكن فإن علم الاجتماع أضحى علماً بعيداً كل البعد عن التأمل النظرى .

وكان دركهيم يلاحظ فى « القواعد » أنه يستحيل ماديا على أى مفكر أن يمتلك معرفة كلية تجميع العلوم الاجتماعية الخاصة ، ويتطلب هـــذا الموقف الإلمام بالتقدم الذى أحرزته هذه العلوم ، إذن ينبغى على علم الاجتماع ألا يتراجع أمام هذا العمل العقيم الذى يحتوى على عمل ملخص لجميع العلوم الاجتماعية الأخرى . وفروضها ، وأبحاثها ، واكتشافاتها .

---

(١) المترجم

وأهم مافى طريقة علم الاجتماع هو طريق المقارنة ، المقارنة بين المجتمعات بعضها وبعض ، وبين مختلف منظماتها ، وينبغى عليها كذلك مواجهة جميع الأساليب والطرائق المختلفة التى تستخدمها .

وتحمل هذه الطرائق قواعد للنظام العام الذى يمكن المرء أن يعتبر هذه القواعد مشتركة لجميع العلوم الاجتماعية ، ولكن هناك كذلك طرائق « نوعية » تختلف كل واحدة منها عن الأخرى : فمثلا طريقة دراسة علم السلالات البشرية وطبائعها Ethnologie تختلف تمام الاختلاف عن طريقة علم الاحصاء . والسؤال هو أن نعرف : إلى أى حد تستطيع هذه الطرائق النوعية أن تندمج معاً ، وأن تتعايش معاً ، وما الهدف ، والمكان الصحيح لمفهوم القانون فى كل حالة على حدة ؟

وتقفز أمام أعيننا أهمية منهج الكشف عن مشكلات هذه الطريقة عندما نتعرض لدراسة إحدى هذه الوظائف الكثيرة العدد أو المنظمات المتجانسة تقريباً التى نلمسها فى كل المجتمعات المختلفة ، وفى كل العصور ، مثال ذلك : الأسرة أو الحرب ، فكل مشكلة من هذه المشكلات لها ما يبررها من ناحية جغرافيتها الإنسانية، وتحليلها الإحصائى. وداتنولوجيتها، وتاريخها وأدبها المقارن ، وتاريخ مذاهبها وأفكارها ، لأنه كما يقول مارسل موس Marcel Mauss لا توجد إلا حقيقة واحدة وهى الحقيقة الكلية . وهذه الحقيقة الكلية هى التى يجب أن تحلل وأن تجزأ على حسب المبدأ الديكارتى .

وفى دراستنا عن الحروب ، حاولنا أن نطبق هذه الطرائق المختلفة الواحدة تلو الأخرى للأشكال الكثيرة لهذه الظاهرة التى لا تتغير أساساً .

وتحتوى طريقتنا فى دراسة الحروب على أن تخضع تقاريرنا وأبحاثنا تبعاً لقاعدة « الموضوعية المتناقضة » .

(١) الوصف الخارجى الخالص البسيط ، وهذا الوصف يجيب عن السؤال الآتى : ما الذى يحدث ؟ وكيف نتصور الحرب ؟ ثم يأتى بعد ذلك التعداد الإحصائى عند ما يكون ممكناً ، وعلى ذلك نحدد الخطوط الأولية لأصل نشأة الحروب .

(٢) ثم نمضى من ثم إلى درجة أخرى من الموضوعية أقل من الأولى تتصف بعناصر نفسية ، وهذه الدرجة عبارة عن عرض وتصنيف لمختلف نماذج المبررات والدوافع التى يقدمها منشئو الحروب أعنى هؤلاء الذين يقررونها ويضعونها .

(٣) ثم تأتى بعد ذلك الشروح المحدودة أعنى عرض أفكار واضعى النظريات السياسية والمؤرخين والاقتصاديين الخاصة بسلسلة من الصراعات المسلحة ، أو بشرح إحدى الصور الخاصة بالحرب .

(٤) وأخيراً ، مذاهب النظام العام مثـــل مذاهب رجال الدين والفلاسفة والأخلاقيين .

وتحتوى هذه التصرفات ، وهذه الآراء بالنسبة للفكر الاجتماعى على حقائق صالحة للملاحظة والتى يتحتم دراستها موضوعياً . وأهميتها كبيرة جداً فى الدراسات الاجتماعية فضلا عن الآراء المتغلبة ، سواء أكانت آراء صحيحة أم وهمية تؤثر بدورها فى الحقيقة لأنها تترجم بدون شك عن نفسها .

ويمكن تلخيص هدف علم الاجتماع فى النقاط الآتية :

(١) دراسة الأنظمة الاجتماعية والعناصر المشيدة لها ووظائفها .

(٢) دراسة الظروف التى تطورت فيها بعض التنظيمات الاجتماعية

(٣) مقارنة « النتائج التى حصلنا عليها عن طريق العلوم الاجتماعية الخاصة » .

(٤) دراسة الاتصالات بين هيكل المجتمعات ، والأنماط ، العقلية للأفراد الذين يكونون هذه المجتمعات (وهنا تؤدى السيكولوجية الاجتماعية دوراً هاماً) .

(٥) دراسة العوامل التى تساعد على حدوث تغييرات فى الأنظمة الاجتماعية .

الفصل الثالث

علم الاجتماع الثابت « الستاتيكى »

وهناك تمايز واضح بين علم الاجتماع الثابت « الستاتيكى » وعلم الاجتماع التطورى « الديناميكى » كما اقترحه أوجست كونت ، وفى الأصل ، ينبغى على علم الاجتماع الثابت أن يدرس المجتمعات فى لحظة معينة ، أو كما يقول كونت فى المكان . وإذن فإن عمله « وصفى » وبذلك ينحصر عمله فى دراسة التنظيمات الاجتماعية وتنوعها . أما علم الاجتماع التطورى فيدرس التنظيمات الاجتماعية فى « الزمان » فقط ويحلل ويفسر متنوعاتها وتغيراتها .

ولا يستطيع علم الاجتماع الستاتيكى إلا أن يكشف عن ثبات نسبى ، لأن حياة المجتمعات تتضمن عدة سلاسل متشابهة من حركات دورية غير متساوية ، تلك التى تتصادم معاً فى جميع الاتجاهات . ويتكون الإنتاج الاقتصادى وتبادل السلع والحياة ذات الفصول الأربعة والحياة السياسية والدينية من التكرار المنظم للدورات . وتتكرر كل هذه الظواهر بانتظام فى « الزمان » ودورتها عنصر من العناصر المشيدة للنظم الاجتماعية . وعلى ذلك فإن الحياة الاقتصادية توصف بأنها دورات تقوم على تنظيم الإنتاج الزراعى من وقت البذر حتى وقت الحصاد ، وعلى هذا المنوال ، يسرى الشىء نفسه على الصناعة وعلى تداول السلع والنقود ، وتتسلط بعض الظواهر الدورية غير المعروفة تماماً لدينا والمدة الطويلة ذاتها على المجتمع مثل ظاهرة الأزمات الدورية للإنتاج الزائد وانخفاض الأسعار .

ولنتحدث الآن عن حياة المنظمات : تحتوى التظاهرات الرئيسية للمعتقدات الدينية على احتفالات للعبادة دورية ، وهى غالباً ما ترتبط بنظام كونى مثل نظام الفصول ، أو ظروف حياة الأفراد . فالولادة وقبول الشاب كعضو فى المجتمع ، والزواج والموت ، كل ذلك يؤدى إلى حفلات ذات طابع دينى خاص . ومثل هذه الحال نجد نظيرها فى الحياة السياسية : فوصول الرؤساء إلى كراسى الحكم ، والانتخابات ، والخدمة العسكرية واجتماع المجالس النيابية لها كذلك احتفالات دورية . ويمكن القول بأن كل الفرص الملهمة التى عن طريقها تقام وتتجدد الاتصالات بين أعضاء المجتمع الواحد مثل الأعياد ، والعبادات والأسواق الخ . . . لها كذلك طابع دورى .

وقد نضيف إلى هذا ظاهرة الحرب ، فقد كشف بعض المفكرين الاجتماعيين أخيراً عن دورات تاريخية أعنى التكرار المنظم أو الدورى لبعض الحوادث أو لبعض المنظمات .

وأهم مظهر لهذه الدورات إنما هو تأثيرها الفعال على نفسية الأفراد ؛ فقد يحدث فى فرصة الاحتفالات ، سواء منها الدينية أو السياسية أو العسكرية اختلاط غريب من الإلهام الجماعى ، ومن الإخلاص ومن الحالات النفسية المتجانسة بين الأفراد . فالاجتماعات والاحتفالات فرص للسرور والأحزان والخوف الجماعى .

الهياكل الاجتماعية

ودراسة الهياكل الاجتماعية تتطلب أولا دراسة الصورة العامة للمجتمعات ووضعها الجغرافى ، وحالة توزيعها فى « المكان » ، وخصائص

سكانها . ومن الأهمية بمكان دراسة مختلف الصور التى تمثلها هذه المجتمعات الإنسانية . وينبغى علينا حين دراستها أن نفحص الحالة التى أصبحت عليها بعد أن جزأت نفسها أو انقسمت فيما بينها ، وقد اقترحت عدة تقسيمات لهذه الدراسة الاجتماعية .

والواقع أن دراسة الهياكل أو التركيبات الاجتماعية موزعة بين عدة علوم اجتماعية وهى الجغرافية الإنسانية ، وتحليل النظم الاقتصادية ، واجتماعية الأسرة ، والقانون الدستورى ، والجغرافية السياسية ، وعلم اللغات ، وعلم توزيع السكان .

العقليات أطر ومحتويات

وتحتوى العقليات على منظمات عقليــة حقيقية لها اتصال بالمنظمات الاجتماعية ، وتتضمن دراسة العقليات وتنوعها المشكلة الأساسية للنفسية الاجتماعية ، وأكثر من ذلك ، فهذه المشكلة تقوم على تحليل علم الاجتماع من جميع نواحيه ، لأن جميع الظواهر الاجتماعية تنعكس وتعبر عن نفسها فى أفكار أصحاب هذا العلم . وتوضح هذه العقليات كيف أن الحالات الاجتماعية عاشت ، وترجمت ، وأحس بها أفراد المجتمع ؟ وقد شعر أوجست كونت بأهمية المشكلة ، فكل حالة من الحالات الثلاث التى سبق شرحها عند التحدث عن أوجست كونت تمثل عصرا من عصور التاريخ التى مرت بها العقليات .

وقد عرف أندريه لالاند André Lalande العقلية بأنها « مجموعة من الاستعدادات الفكرية وطبائع الروح ، ومعتقدات أساسية عند الفرد »

وفى التحليل الأولى الذى اقترحناه للعقلية ، أوضحنا ثلاثة أطر رئيسية يمكن المرء أن يلمسها فى جميع المجتمعات،من المجتمعات التى هى أكثر بدائية إلى المجتمعات التى هى أكثر تعقيدا وهى :

(١) علم القوانين الذى يحكم العالم أعنى التفسير الحقيقى أو الوهمى للعالم.

(٢) علم الأخلاق وهو مجموعة القواعد والمعتقدات التى تختص بعلاقات الرجال فيما بينهم وتحكمها .

(٣) فنون الإنتاج ونعنى مجموعة المعارف والطرائق الفنية التى عن طريقها يعمل أفراد المجتمع لسيادة الطبيعة .

وهذه الأطر فى كل مكان ، ولكن الذى يجعلها تختلف وتتنوع من مجتمع إلى آخر هو محتوى العقليات . وهذا المحتوى نتيجة للمجهود الذى تم بوساطة كل حضارة ومجهودها للوصول إلى معرفة الحقيقة على أوسع نطاق ، ويعتمد هذا المجهود على الفحص والعمل والتكيف فى وقت واحد ، وعلى ذلك تأتى العقلية من الثقافة النوعية لمجموعة من الناس .

وينبغى علينا أن نضيف إلى ما ذكرنا :

(١) الاتجاهات الديناميكية الرئيسية مثل : الحاجات والغرائز والميول ، ولكن هذه الاتجاهات لها طابع مشترك لا يظهر لنا إلا تحت الصورة أو الشكل الذى تمنحه الحياة الاجتماعية هذه الاتجاهات .

(٢) درجات الفهم التى بدونها لا توجد فكرة ، ولا أى أثر لعمل فى أى مجتمع ، وهذه الدرجات هى بالضرورة المكان والزمان والمشابهة والسببية ، وأحكام القيمة وأحكام الحقيقة . ويجب أن نعلم أن هذه الفئات من وجهة نظر دركهيم نتائج لدوافع اجتماعية .

وقد تقابلنا بعض « صور للانتقال » بمناسبة التحدث عن العقليات : فالسحر مثلا يمثل صورة من صور هذا الانتقال : فتارة يكون علماً تكنيكياً غير قائم على أسس علمية ، وتارة أخرى يندمج مع المعتقدات الدينية ، ولكن الأديان استطاعت أن تتخلص شيئاً فشيئاً من السحر . وقد ساعدت الثورة المسيحية على تطور العلوم والفنون المادية بجعلها مستقلة استقلالا كلياً عن المعتقدات .

ومن الدراسات المهمة للنفسية الاجتماعية دراسة الفكرة الاجتماعية للبدائيين ، ومعتقدات المجتمعات القديمة والبدائية ، وقد هيأ صغر هذه المجتمعات وعدد أفرادها القليلين وتمايزها الضعيف وضيق معارفهم ، للمفكرين أن يأخذوا فكرة جامعة عن عقلياتهم ، وعلى ذلك فالوظائف الرئيسية التى تشكل مجتمعاتهم تبدو واضحة لأنها ، ليست غارقة تحت طائفة من النظم التى يتلو بعضها بعضاً .

الارجاع النفسى

L'Interpsychologie

وهذه الدراسة تضع المشكلة الرئيسية لأشكال العمل فى المجتمع على عاتق الأفراد الذين يشكلون هذا المجتمع .

ولكن هل يمكن أن يكون هذا العمل مباشراً ، أعنى أن يمارس بطريقة لا شعورية من داخل أنفسنا ؟ هذا السؤال يعتبر من أدق الأسئلة وأكثرها حساسية لعلم الاجتماع ، لأن المفهوم العام للعلاقات الإنسانية

والنظم التى تتعلق بالقانون والأخلاق والتنظيم السياسى تتغير من وقت إلى آخر .

وإذا جاز القول بأن الإنسان يستطيع أن يكون لديه إدراك مباشر بحالات المجتمع الذى هو جزء منه ، فإنه ينتج عن ذلك زيادة قوة المعتقدات الرومانتيكية . وسوف نكون مضطرين أن نعالج بكل احترام « قفزاتنا » كأنها رسائل ليست موحى بها من الآلهة ، لكن موحى بها من « الوجدان الاجتماعى » وعندما نقبل هذه النظرية التى ستكون نتيجتها البالغة نوعاً من التكهنات الاجتماعية ، فإنه ستتمخض عن ذلك تلك المناقشة التى تريد أن تعرف : من له حق تمثيل الوجدان الاجتماعى؟

هل ستكون لأقلية ، أى لطائفة رجال الدين التى تدعى لنفسها النيابة عن أفراد المجتمع فى تمثيله للوجدان الاجتماعى ؟ أو أن لكل شخص صوتاً فى تمثيل هذا الحق ، ومن هذا الحق ، تتولد المشكلات التقليدية للمذاهب الدينية والسياسية ؟ .

ومهما يكن من أمر ، فإنه لا يبدو أن هناك حقائق غير قابلة للمناقشة تسمح بإثبات إمكانية إدراك مباشر للحواس الداخلية الاجتماعية. ولا ننسى أنه حتى هذه الحواس الداخلية الاجتماعية لتركيبنا العنصرى الخاص غير واضحة تمام الوضوح بمعنى أنه قد تكون هناك أمراض خطرة من مدة طويلة كامنة فى تركيبنا العضوى وهى خافية علينا دون أن نشعر بها . وعلى هذا المنوال ، قد تكون هناك تغييرات أو اضطرابات اجتماعية موجودة وتعبر حياتنا دون أن نشعر بها . وربما لاندرك نتائجها . وقد تكون النتائج قابلة للتأويل والمناقشة .

وعلى العكس يستحيل علينا أن ننكر أن تنوع الأنظمة الاجتماعية حتى الأنظمة التى لا نشعر بها ولا ندركها تثير فى أساليب الحياة لعدد كبير من الأفراد تغييرات قد تؤثر تأثيراً كبيراً فى سلوكهم وتصرفاتهم . وينتج عن ذلك ويبطء تغييرات فى الروح العامة وفى نوع الحياة . وعن هذا تنشأ فى المجتمع قوى وآمال جديدة وتيارات جديدة كذلك من الأفكار .

وعلى ذلك ، ينبغى على النفسية الاجتماعية أن تدرس ما كان يطلق عليه تارد Tarde « الإرجاع النفسى » ويعنى بذلك مختلف الصور لردود الفعل النفسية المتبادلة بين أفراد ينتمون إلى حضارة واحدة . وهذه الصور الرئيسية هى التقليد ، والدليل ، والإقناع والإيحاء ، والكرامة ، ومنطق ظواهر الإحساسات المختلفة وصور الإكراه ، والرعب ونفسية الجماهير ، وظواهر الإيحاء العقلى ، والسلوك النفسى الاجتماعى الذى يأتى عن صور التسلسل . وتضيف إلى ذلك دراسة مختلف الصور للاعتقاد ، ودراسة ماهية الرضا بدرجاته المختلفة وتظاهراته .

تصنيف المجتمعات

Typologie

من أحد أهداف علم الاجتماع الثابت « الستاتيكى » هو أن يهيء للمفكرين إقامة خصائص مشتركة بين المجتمعات المختلفة . فهو يقوم بعمل تصنيف للمجتمعات ، وعقد مقارنة علمية بينها . ويشير « دركهيم » إلى أن المقارنة الاجتماعية غالبا ما تدعو إلى المغالطة عندما لا تنصب على

بجتمعات ليست من طابع واحد . ولقد اقترحت كل الأنظمة الاجتماعية في الأصل كما سنرى فيما بعد مقاييس لتصنيف المجتمعات . وقد كان المفكر الاجتماعي جورج جرفيتش Georges Gurvitch يركز على على ضرورة البحث عن طريقة تصنيفية لدراسة المجتمعات ، فقد دعا إلى التمييز بين العلاقات الاجتماعية السائدة في الفئات الصغرى المحدودة وبين العلاقات الاجتماعية في التنظيمات والفئات الكبرى ، ويعين النوع الأول لدراسة العلاقات الاجتماعية المباشرة في نشأتها التلقائية . وأهم ما يميز العلاقات الاجتماعية في مثل هذه الأنماط التلقائية روح الزمان القائمة على وضع الفرد في الجماعة . أما النوع « الآخر » من العلاقات الاجتماعية فيقوم على دراسة مظاهره الاجتماعية المنظمة بما تشتمل على قواعد ونظم وعادات تبلورت ورسخت في التنظيمات أو المؤسسات الاجتماعية ، وهذا ما يفسر خضوع أفراد المجتمع للقواعد والتقاليد والعادات والعرف الراسخة في مجتمعاتهم أو طبقاتهم وإلى السلطة الاجتماعية التي تمثلها مجموعة القوانين في النواحي السياسية والاقتصادية والتشريعية . وسنرى فيما بعد ما الذي تم عمله في هذا الميدان حتى وقتنا الحاضر ؟

فتباعد المجتمعات الحيوانية مثلا فيما بينها وبساطتها في ذلك تمنحنا نظرات إجمالية وتصنيفات موضوعية .

وعلينا أن نميز بوجه عام خصائص الجمهور في أثناء اجتماعاته العرضية واليومية، وتجمعات الأفراد الدورية التي ترتبط غالبا بصورة من صور الهجرة والتنقل من وقت إلى آخر ، ثم يعقب ذلك التجمعات المتجانسة والدائمة التي يكون للمشتركين فيها اتجاه إلى تثبيت حركاتهم الجماعية ، والتمسك بها ، لا أن يعزل بعضهم بعضاً . وأخيرا المجتمعات المنظمة حيث يسود فيها

عنصر الطواعية لرئيس أو لأ كثر ، وعنصر التعاون (العمل المشترك) ، وكذلك عنصر تقسيم العمل .

وقد تجتمع بعض الحيوانات وخاصة ذوات الثدى فى شبه مجتمعات فى أوقات خاصة مثل الذئاب ، وعند الحشرات نشاهد أن هناك أنواعا منها تشارك الأخرى مشاركة صامتة ، ولا يبدو أنها تستطيع أن تحيا منعزلة عنها .

وتمارس معظم المجتمعات الحيوانية تقريبا فكرة الأرض المخصصة « العش » فهى تطارد ، بل تحطم كل من يحاول أن يشاركها فى هذا العش من مجتمع آخر مثل مجتمع النمل والذئاب والكلاب إلخ ، ويتشابه فى هذه النقطة تشابها عظيما البدائيون الذين كانوا يستمدون غذاءهم ويكسبون حياتهم من الصيد ، وقد نجد فى المجتمعات الحيوانية فكرة الحرب عندهم والصراع الدامى المنظم بين أفراد المجتمع الواحد . وقد يؤدى مثل هذا الصراع من مجتمع لآخر إلى تحطيم أحدهما أو تقهقره إلى الوراء .

ويؤدى كل مذهب اجتماعى دون شك إلى إقامة معيار لتصنيف المجتمعات . وقد أقيم مذهب « أوجست كونت » على علم القوانين الكونية المتغلب . أما عند « دركهيم » ، فان المعيار أخلاقى : وهذا المعيار قائم على المبدأ التشريعى المتغلب (فالقانون الرادع قائم على العقوبة الرادعة والقانون المدنى قائم على العقوبة المُصْلِحة) ، ولكن المعيار التشريعى ينوع نفسه على حسب طرائق تقسيم العمل .

ويرى هربرت سبنسر Herbert Spencer أن الترتيب قائم بالضرورة على طريق النشاط والتسلسل الطبقى المسيطر ، مثل المجتمعات العسكرية

أو المجتمعات الصناعية . ونجد وجهة النظر هذه مطابقة لوجهة نظر سان سيمون Saint - Simon .

وبعض المفكرين الاجتماعيين الآخرين ، يرجحون أولوية المعيار الاقتصادي . وهكذا نرى أن ابن خلدون يصنف الشعوب تبعاً « لنوع النشاط الرئيسي الذى يستمد منه الناس حياتهم » . أما كارل ماركس فيصنف الشعوب على حسب فنون الإنتاج والوضع القانونى لتملك الأموال والعقارات .

الفصل الرابع

علم الاجتماع التطوري "الديناميكي"

إن هدف علم الاجتماع الديناميكي هو دراسة تغير المجتمعات وتغير صورها ووظائفها .

وهذا الفرع من علم الاجتماع يعتبر أكثر الفروع حيوية ونشاطا وقوة ، فقد اهتم علماء هذا الفرع بدراسة قضاياه ، وأخذوا على عاتقهم مسئولية البحث عن حلول لهذه القضايا .

ومفهوم التغير الاجتماعي مفهوم دقيق وفى حاجة إلى الدقة المتناهية فى تحديد معالمه ، وذلك أولا بسبب الظواهر الدورية أو ذات المظهر الدورى . وهناك مصدر آخر لهذا الفرع من علم الاجتماع هو معنى الباتولوجية الاجتماعية . ومع ذلك ، فالمرء والحالة هذه تأخذه الحيرة بين التغير الكيفى والتغير الكمى . وغالبا ما تكون هناك علاقة بين هذين النوعين . ولكن ينبغى علينا أن ندخل فى حسابنا نظام تعاقب هذين النوعين واختلاف تطوراتهما ، وتنقلاتهما فى الزمان والمكان ، لأنه لا يتحتم على هذه الظواهر أن يتبع بعضها بعضا فى نظامها المضاد . وتبع الحالات الخاصة ، فقد يحدث أن التغير الكيفى يسبق التغير الكمى ، أو العكس بالعكس . فمثلا ، يزداد تعداد سكان بلد ما دون أن يحدث أى تغيير اجتماعى كيفى .

وبهذه المناسبة ، سبق لدركهيم أن ركز دراسته على الفرق بين الكثافة العددية ، والكثافة الإجماعية . وتكشف الأخيرة عن مدى الاتصالات

بين الأفراد مثل المواصلات . والتبادل من كل نوع ، والتبادل الفكرى والاقتصادى والتضامن الخ .

ولقد شعر مفكرو هذا الفرع من علم الاجتماع بأن هناك معنى للتوازن بين الاتجاهات والجماعات ؛ ففى أيامنا هذه ، تعمق علم الاقتصاد السياسى فى دراسة معنى التوازن . ويمكن القول بهذا الصدد إن جميع قوانينه ، وقوانين الأسواق ، وقوانين تحديد الأسعار ، وقوانين الدخل ، والقوانين التى تحكم الظواهر النقدية ، كل هذا يقرر أن هناك علاقات توازن .

ومعنى هذا التوازن فى علم الاجتماع أكثر تعقيدا من معناه فى علم الاقتصاد ، لأنه يحدث اختلافات ووظائف وعوامل عدة ، ومن جهة أخرى فان التقلبات الاجتماعية ليست هى التغيرات ، وتتضمن هذه التقلبات تغيرا دائما للهياكل الاجتماعية ، أعنى أن التنوع لا يكون متبوعا بالرجوع إلى نقطة انطلاقه ، والمقصود هنا انفصامات من التوازن غير قابلة للرجوع إلى الوراء . وهذا يوضح مدى مرونة الأشكال الاجتماعية وليونة التنظيمات فى حدود قابليتها للتشكل والتنوع .

ويمكن القول بطريقة مبسطة إن عدم وجود توازن اجتماعى لا ينشأ أبدا فى كل مكان فى وقت واحد ، وهذه الطريقة المبسطة تبدأ بواقعة جديدة تستند على أحد مخططات الحقيقة الاجتماعية . وتبعاً للظروف التاريخية غير المرتقبة ، فإن الاهتزازات الأولية تحدث فى أحد الميادين التى تتصل كل منها بما أسميناه بأطر العقلية . ومن مفاهيمنا العلمية ، ومن أفكارنا الاخلاقية أو التشريعية أو من طرائقنا الفنية ، فان هذا الاهتزاز الأولى يلمس الهياكل الأخرى ، فيحدث إعادة توازنات عامة . وعلى

ذلك ، فتقدم الطب ، وبخاصة منذ اكتشاف المصل ضد الجدرى أثار الثورة السكانية . أعنى ازديادمعدل المواليد . وكذلك إطالة متوسط الحياة ، وينتج عن ذلك بدون شك إعادة تنظيم للمجتمع . وعلى العكس فقد حدثت الثورة المسيحية دون أن يسبقها تغيرات فى العلم ، ولا فى الطرائق الفنية ، ولكن انتصارها فرض بعد ذلك تنظيمات اجتماعية جديدة ، أثرت فى معنى التطورات التالية للعلوم . وقد فرضت الثورة الصناعية من جانبها انقلابات سياسية وأخلاقية . فالتطور متشابه فى كل الميادين ، ونظام التعاقب فى هذا التطور هو وحده الذى يختلف .

وعلى ذلك فإن كل عقلية جديدة تحتاج إلى تنظيمات جديدة . ومن ذلك نفهم تقسيم سان سيمون المراحل العضوية والمراحل الحرجة . وتوصف هذه المراحل الأخيرة بعدم التوافق بين المنظمات والعقليات . ويتخلف عن ذلك انتشار عدم الرضا العام وروح الحرمان من أخذ الحقوق وبعث الاعتداءات والانقلابات العنيفة .

ولكن كل تغير اجتماعى مشروط بشرط حدوث اختراع أو عدة اختراعات ، أعنى إدخال تجديدات أو ابتكارات فى المحيطات العقلية والمادية ، فالاختراع هو الظاهرة الرئيسية للتاريخ ، والمقصود بالاختراع هنا اختراع فى القيم أو اختراع فى الطريقة الفنية ، أو اختراع علمى .

وقد اقترح تارد Tarde التفرقة بين الاختراعات العلمية التى يضاف بعضها إلى بعض والاختراعات الخاصة بآداب السلوك والسياسات التى تتنافر فيما بينها لأن الاختراع الأخلاقى يشمل عددا محدودا من المعايير . ويقوم التجديد فى هذا الميدان على التدليل أكثر مما يقوم على الاستنتاجات.

وتبعاً للعامل التاريخي، فقد تحدث أحيانا بعض الظروف التي يتنافس كثير من الدوافع خلالها على إثارة إعادة النظر للقيم وللصور الجديدة للتوازن بين المنظمات والطرائق الفنية والعقليات . وقد يحدث هذا التنافس عن طريق توافق الظواهر الدورية التي تضاف آثارها للأسباب الأخرى للاضطرابات . وعلى ذلك فالأزمة الاقتصادية التي سبقت عام ١٧٨٩ أو الانتكاسات التي تصاحب الاختراعات التكنيكية والاضطرابات الاجتماعية معاً تثار بوساطة الحروب وتوجد كذلك مراحل من التوازن العقلي غير الثابت التي تعتبر مهيأة للارتدادات الجماعية . وقد يستمر فقدان التوازن وقتا طويلا تحت صور غير واضحة وقد يظهر فقدان التوازن هذا إذا ما جدّت اضطربات فجائية . وسنتحدث فيما يلي عن الصور الهامة لتظاهرات الدوافع المتنافسة :

(١) الثورات : ونحن نعرف جميعاً الأهمية الضخمة لمفهوم الثورة وكثرة الابحاث التي كرست لدراسة هذا المفهوم . ومع ذلك فنحن نرى أن للحرب معنى واضحاً ، أما معنى الثورة فهو اصطلاح يستخدم في عدد كبير من المعاني يختلف الواحد عن الآخر تمام الاختلاف ، فتشمل هذه المعاني انقلابا في المبادىء وفي التغيير المفاجىء للطبقة الموجهة أو لطريقة التسلسل الطبقي ، وللتغييرات السريعة في القانون الخاص أو القانون السياسي في النقل الجماعي للملكيات والأموال وفي انقلابات البنيان السياسي وفي الطرائق الفنية ، وفي الثورة الصناعية والإحصائية ، وفي الأخلاق والعادات الخ .

(٢) علم الاجتماع الاستعماري : هو جزء متمم لعلم الاجتماع العام، ولكنه يأخذ صورة غير صورة الحرب ، لأن العنف الأولى ذو أبعاد صغيرة جداً

بالنسبة للحرب . فالحالة الاستعمارية تأخذ فى الأصل طابع عدم التناسب فى الوسائل الفنية ، لأننا لا يمكن أن نتحدث عن الظاهرة الاستعمارية إلا عند ما نكون فى مواجهة حضارات ذات مستوى فنى وثقافى غير متساويين . ويسيطر دائماً الأكثر تقدما على الأكثر تخلفاً . وتمثل الظاهرة الاستعمارية صورة سريعة لانتشار الطرائق الفنية وتغيير العقليات . ومن خصائص الأولى للظاهرة الاستعمارية التقليد أو المحاكاة ، فيفرض على أى شعب المنظمات التى سبق لها وجود عند الشعب المستعمر . وهذا يعتبر محاكاة إجبارية مصحوبة بتغيير إلزامى .

ولكن نلمس هنا تميزاً ملحوظا : فالسلطة التى تفرض أحيانا هذه المحاكاة سلطة خارجية ، وهذا هو الاستعمار بعينه .

وأحياناً أخرى ينبثق التغيير من السلطة الداخلية ، وتوضح لنا الأمثلة التاريخية أن التغييرات الشاملة الجامعة التى من هذا النوع والتى كتب لها النجاح كانت نوعاً من « الاستعمار الذاتى » لذلك كان التغيير الذى أحدثه بطرس الأكبر فى روسيا ، وامبراطور اليابان فى عام ١٨٦٨ وكمال أتاتورك فى تركيا . وفى هذه الحالات الثلاث انبثقت القوة الدافعة من التغيير الذى أحدثه هؤلاء الرؤساء الموجهون ، وفى حالات أخرى يستند التغيير المبدئى إلى جزء أكثر اتساعاً من الطبقة الحاكمة كما فى الصين أو على العكس إلى الجزء الأكثر عدداً والأكثر تواضعاً بالنسبة لمجموع الشعب كما فى حالة الثورة المسيحية فى ظل الإمبراطورية الرومانية . وعلى ذلك وتبع هذه الحالات فإن الطبقة الحاكمة إما أن تتبع أو تسبق الجماهير فى طريق التجديد .

الحروب

وها نحن أولاء ، قد وصلنا إلى ظاهرة من الظواهر التى لم تدرس دراسة كافية من جانب علم الاجتماع باستثناء سبنسر ، برغم المكانة التى تشغلها هذه الظاهرة فى حياة المجتمعات ، ولا ننسى أن كثيراً من المدنيات تلاشت واندثرت معالمها بسبب الحرب . وحتى هذا الوقت تعتبر الحرب ميداناً لدراسة المؤرخين الذين يحددون ظواهرها العرضية ، والتى تستحق كثيراً من التأملات .

ومع ذلك فإن استمرار « ظاهرة الحرب » هذه الحقيقة التى نجدها فى المجتمعات المختلفة ، من المجتمعات التى هى أكثر بدائية حتى المجتمعات التى هى أكثر تمديناً يضطرنا إلى أن نعتبرها ، سواء أردنا أم لم نرد ، وظيفة من بين الوظائف الاجتماعية التى هى أكثر دواما وثباتاً ، وتبدو لنا دراستها من الأهمية بمكان . وينبغى أن تحتل جزءاً كبيراً من أجزاء علم الاجتماع العام ، لأن الحرب مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بعدد كبير من الدوافع الاجتماعية المتداخلة، ومن المستحيل علينا أن نغفل أيًّا من هذه العوامل .

وتقدم كل حرب حالية فى حوادثها ونتائجها صوراً إحصائية وسياسية واقتصادية وفنية ، حتى فلسفية ودينية . ولنلاحظ أن نتائج الحروب هى النتائج الوحيدة التى يمكن بها أن ندرسها بطريقة موضوعية ، لأن الأسباب الحقيقية للحروب تكون لدينا غير واضحة وغير معروفة أو هى أسباب فرضية بحتة .

وإذن من الضرورى جداً أن ننشىء فرعاً لعلم الاجتماع العام يخصص لدراسة الحروب وأشكالها المختلفة ونتائجها بطريقة موضوعية كذلك دراسة القوى الدافعة للحروب الدورية . ولذلك اقترحنا أن نطلق على هذا الفرع من الدراسة اسم « علم الحرب » وليس هذا لمجرد المتعة التافهة فى خلق كلمات جديدة فى اللغة ، ولكن لأن اسم « علوم الحرب » هو الاسم الذى أطلق تقليدياً على فن الحروب (استراتيجية ، تكتيك ، تنظيم الجيوش الخ) الذى يدرس فى الأكاديميات العسكرية وفى كليات أركان الحرب .

ونضيف إلى ذلك أنه من الفائدة بمكان أن نتذكر ضرورة الدقة إلى حد ما فى تحديد أفكارنا فى مواد هذه العلوم لأن الحروب التى لم تكن حتى وقتنا الحاضر إلا مصائب وأحياناً كوارث ، اتجهت الآن إلى أن تصبح كوارث وانقلابات مدمرة للجنس البشرى . واليوم أضحت فنون التدمير أقوى بكثير من فنون الإنشاء والتعمير .

أهمية علم الاجتماع فى الوقت الحاضر

وخلاصة القول ، نرى أن تطور العلوم الاجتماعية الخاصة لم تقلل شيئاً من أهمية علم الاجتماع العام . ويتطلب تصنيف المجتمعات ومقارنة بعضها للبعض الآخر إعداد « طبولوجيا » إجتماعية قائمة على معايير موضوعيــة لا على مفاضلات مذهبية ومن وجهة أخرى ، فإن علم الاجتماع التطورى « الديناميكى » وبخاصة بعض الظواهر يشتمل على فصول منفصلة تماما عن علم الاجتماع العام .

وأخيرا فهل نحن فى حاجة إلى أن نردد الأهمية الكبرى والفوائد الجمة التى يقدمها علم الاجتماع للانسان ؟ وتنحصر مأساة العصر الذى نعيش فيه فى التنقل التراجيدى بين حالة الطفولة للعلوم الاجتماعية ، والتقدم المذهل لفنون الإنتاج . وهل وصلت الإنسانية اليوم إلى مستوى من الوحشية والعنف أكثر مما وصلت إليه فى الأزمنة البدائية ؟ وأما زالت عقليتها عقلية طفل ؟ واليوم يغامر الإنسان بأن يكون ضحية قوة دافعة غريزية تعمل على إثارة الاضطرابات والقلاقل الاجتماعية ، لأنها تخلق له مصائب فوق ما تحتمله طاقته ، وليس هناك غير التعمق والدقة فى دراسة نتائج حقائق المعارف الاجتماعية التى قد تهيئ للإنسان البحث عن وسائل تحرره من القوى الاجتماعية الاستبدادية وإمكانية التغلب عليها ، وبذلك نستطيع أن نخلق توازنا جديداً بين علوم الإنسان وعلوم المادة .

فهرس

مطابع الدار القومية للطباعة والنشر
ت : ٤١٠١٢ — ٤٠٧٥٣
٤٠٨١٤ — ٤٠٥٨٨

هذا الكتاب

يتنـــاول الكتاب تطـــور النظريات والافكار الاجتماعية من عهد الاغريق حتى هـــذا العصر ، ويلقى نظـــرة عامة على المبـــادىء الاساسيـــة والمفاهيم الاجتماعيـــة التى تهدف الى رفع شأن المجتمعات مع حديث موجز عن أشهر الفلاسفة والكتـــاب الذين كافحوا من اجـــل رفاهيـــة المجتمع .

الدار القومية للطباعة والنشر
١٥٧ شارع عبيد - روض الفرج
ت : ٤٠٧٥٣ / ٤١٠١٤
٤٠٥٨٨ / ٤٠٥١٤